
روايات مصرية للجيب
36
فانتازيا
حب فى أغسطس
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

(عبير عبد الرحمن) هى إنسانة عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لابد من شىء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشىء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدباء والفنانين والسينمائيين ومصممى الألعاب، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البديهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمةَ النفس ، لهذا لن تتركنا هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا معها .. سوف نعبر معها عالم المرآة الساحر مثلما فعلت (أليس) يومًا ما .. سوف تقابل -ونحن معها- العبقرى المخيف (دستويفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و(الخوارزمى) و(أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ....

الجزء الأول

العشـــاق

« نعم .. نعم .. أنا كنت عاشقًا يومًا ما .. لن أندهش لو أنك وثبت فى نهر (أوتا) .. إن هاتين الغمازتين قادرتان علـى تغيير الكون ذاتـه ، وعلـى ترويض الشياطين فـوق (فوجى ياما) .. »

★ ★ ★

١ ـ مغامرة أخرى ..

وقطار (فانتازيا) المضحك يتأرجح فى رحلته المعهودة ..

لا تعرف (عبير) لماذا لم تعد إلى عالمها بعد ، ولا لماذا تعيش ثلاث مغامرات بشكل متصل .. لا تجسر على أن تقول إن هذا مرهق ، أو ظلم أو أكثر من اللازم .. إنها تتسلى بعد كل شىء ..

وخطر لها أنها جربت ذات التجربة مرة من قبل .. تجربة عدم العودة ..

قال لها (المرشد) وهو يضغط على القلم :

ـ « لا داعى للقلق .. أنت تعرفين قواعد (فانتازيا) .. لا بد أن سباتك تحت الجهاز لم يستغرق أكثر من ساعتين .. »

ـ « وما تفسير هذه الظاهرة ؟ »

مط شفته السفلى وقال :

ـ « كيف لى أن أعرف ؟ هذه الأشياء تحدث .. ربما كنت بحاجة إلى جرعة أكبر من اللازم من الفرار من الواقع .. »

فكرت قليلاً وراحت تنسق خصلات شعرها المنكوشة كما هى دومًا وقالت :

ـ « حسن .. أحيانًا أشعر بالذنب لفرارى إلى (فانتازيا) .. لا أرتكب إثمًا لكن الفرار فى حد ذاته مهين .. »

قال لها باسمًا والشمس تؤذى عينيه ، فيرخى ستار النافذة قليلاً :

ـ « لنقل إن تركيبك النفسى فريد من نوعه .. أنت غير قادرة على مواجهة عالمك بأى شكل من الأشكال .. كأنك كائن فضائى هبط على الأرض شاعرًا بالعجز عن التكيف .. الكل يطالبه بالتكيف .. الحقيقة هى أنه لن يتكيف أبدًا .. سيظل مشتاقًا إلى الكوكب الذى جاء منه حيث يتنفسون النتروجين ويأكلون الديوتيريوم .. كوكبك الذى جئت منه هو (فانتازيا) .. إليه تنتمين وتشعرين نحوه بالانتماء والولاء بلا حد .. »

تنهدت وقالت فى صبر :

ـ « أنت لخصت الموقف .. والآن إلى أين ؟ »

نظر من النافذة ـ بعدما أزاح الستار ـ وقال :

ـ « أنت من تختارين .. إن أحلامك أوامر .. »

من بعيد تهبط الصواعق فوق قلعة الدكتور (فرانكنشتاين) فى أثناء تجربته الرهيبة .. (راغب نميان) بطل قصة (العنكبوت)

يحاول إجراء تجاربه المخيفة على الجسم الصنوبرى حيث يكمن وجداننا الجمعى .. الرجل العنكبوت يتواثب فوق الأسطح بينما (هارى بوتر Pootter) يجرب حظه فى رياضة (الكويديتش) .. (سارة) المراوغة التى تحوى شخصية ألف امرأة تتلاعب بـ (همام) فى رواية (العقاد) المعقدة الكثيفة .. (هنادى) تلقى حتفها .. (نسرين الجبالى) الصحفية الشابة تركب سيارتها إلى (المقطم) فى مهمة غامضة .. ومن بعيد الجزيرة الطائرة (لابوتا) التى استضافت (جليفر Gulliver) تحلق أمام قرص الشمس لتحجبه عن بعض الشعوب المطلوب عقابها ..

ألف احتمال واحتمال .. احتمالات متعددة إلى درجة أن الأمر عسير ...

قالت له وهى تلصق وجهها بالنافذة :

ـ « الأمر صعب يا (مرشد) .. »

قال لها فى لا مبالاة :

ـ « هناك تقنية راقية اسمها (حادى بادى) .. يمكن استعمالها .. فقط غطى عينيك .. هذا سيجعل المرح عامًا .. »

نفذت ما يقول متجاهلة سخريته ، وراحت تردد بلهجة طفولية كما كان الأطفال يلعبون فى الصغر .. وفى خبث وبلهجة منتصرة هتفت :

ـ « ما خدش إلا دى ! »

وفتحت عينيها فوجدت منظرًا مخيبًا للآمال إلى حد ما ..

بلدة عادية جدًا .. مبان نظيفة .. حدائق .. لاشىء يوحى بأى شىء ..

قالت له وهى تشعر بالذنب :

ـ « ما هذا ؟ تبدو لى قصة غير مشجعة .. »

قال لها وهو يتفقد الدليل فى يده :

ـ « آه .. إن طابع هذه القصة هو الرومانسية .. الكثير منها فى الواقع .. هناك شهقات ودموع وفراق وخطابات مبللة بالدمع حتى صارت لا تقرأ إن كنت قد أحسنت فهم المكتوب هنا .. هل تحبين هذه الأشياء ؟ »

قالت مفكرة :

ـ « أحبها لكنى لم أجربها قط لو كنت تفهم ما أعنيه .. إن لدى قدرًا هائلاً من الرومانسية لم يستعمل قط حتى صدئ .. يشبه الأمر سيفًا كنت تعده لحرب لا هوادة فيها ، ثم مرت الأعوام والسيف لم يغادر قرابه ، وصرت تتساءل : هل حقًا لديك سيف ؟ وهل حقًا يمكنك استعماله ؟ لقد تزوجت

دون رومانسية وأنجبت دون رومانسية وفارقت دون رومانسية .. »

نظر لها فى ضيق وقال :

ـ « لو كنت ستمضين اليوم فى الاستمتاع بالرثاء لذاتك ، فإننى أرجو أن تخبرينى متى تنتهين .. »

ـ « لا داعى .. فلنكمل حوارنا .. »

ـ « هل ترغبين فى تجربة هذه القصة الرومانسية ؟ »

ـ « أحب .. سيكون هذا نوعًا من التجديد .. ولكن ما هى خلفياتى ؟ »

مط شفته السفلى كالعادة ، وقال وهو يدس قلمه فى جيبه :

ـ « لا يوجد الكثير .. المدرسة الشابة (متشيكو زاكو) .. هل هذا كاف ؟ »

أعادت نطق الاسم بصعوبة ، وقالت :

ـ « (متشيكو ..) .. ألم تجد اسمًا أكثر تعقيدًا وثقلاً على اللسان ؟ »

ـ « نعم .. لم أجد .. إن مسمعه يختلف بالنسبة لأذن يابانية .. ثقى أنه ما من يابانى سيروق له اسم (عبير عبد الرحمن) مهما كان متفتح الفكر .. »

- « يابانى ؟ إذن أنا ؟ »

- « نعم .. يابانية .. هذا كاف .. والآن إلى اللقاء .. »

وجذب حبل القطار فتوقف بشكل مفاجئ ، حتى إنها قذفت إلى الأمام .. وحين أفاقت وجدت أنها تقف فى الخارج ، وأنها ترتدى ثيابًا رقيقة هفهافة أقل ما يقال عنها هو أنها ثياب مدرسة يابانية ..

لقد بدأت القصة فجأة ...



٢ـ إنه أغسطس ..

إنه (أغسطس) ..

إنه (أغسطس) لكنه (أغسطس) آخر يختلف عن (أغسطسنا) الحار الرطيب ، حيث يلتصق جلدك بالقميص بفعل صمغ كريه هو العرق .. حين تغرق روحك ذاتها في العرق .. الحقيقة أن الطقس جميل بالفعل .. هذه البلدة الصغيرة ساحلية وقرب خليج .. ويبدو أن هواء البحر العابث الخبيث لا يرحم العواطف هنا ..

ما أجمل أن توجد وأن تملأ المكان والزمان .. ما أجمل أن تكون هناك لحظة قادمة ، وما أروع أن تكون هناك لحظة ماضية .. لحظة قادمة تفعمك بالأمل .. ولحظة ماضية تفعمك بالحنين ..

كل هذا الطرب في روحها ، وكل هذا الجذل يرهقها بحق .. تغلق فاها بإحكام كي لا يثب قلبها منه ..

منذ متى كانت في العالم كل هذه الورود ؟ منذ متى كانت في الجو هذه الروائح مجتمعة ؟ منذ متى تعزف الطيور (رابسودى) كاملة ؟ حواسك عادت إلى حالتها الطفولية الأولى

كما خلقها اللّـه ، قبل أن يفسد التلوث أنفك ، وتفسد الضوضاء أذنيك ، وتتلف الدموع عينيك .. ثمة منديل كونى مسح كل البقع على زجاج روحك فعدت ترين الأشياء كما كان ينبغى أن تريها ..

تالله أنت عاشقة أيتها البلهاء الصغيرة ! لا يوجد تفسير آخر ..



لماذا يبدو قلبى بهذه الخفة ؟ لماذا تبدو النجوم بهذا التالق ؟

لماذا تبدو السماء بهذه الزرقة ...

منذ الساعة التى قابلتك فيها ؟

أعرف لماذا تبتسم الدنيا بهذه الرقة البالغة ..

إنها تردد تلك القصة القديمة الخالدة عبر الأبدية ذاتها ..

أيها الحب .. هذه أغنيتى لك ..

(أغنية قديمة من كلمات وتلحين شارلى شابلن (★))



(★) نعم .. لا خطأ هنا .. (شارلى شابلن) كاتب وملحن موهوب ، وكان يكتب الموسيقا المصاحبة لكل أفلامه ، ومن أشهر ألحانه بالنسبة للأذن العربية افتتاحية أغنية (الميه تروى العطشان) التى لم ينكر الموسيقار (عبد الوهاب) أنه نقلها من موسيقا فيلم (البحث عن الذهب) .

اسمها (متشيكو زاكو) ..

رقيقة كالزهرة .. دقيقة كالزهرة .. أنيقة كالزهرة ..

لها ضفيرة سوداء طويلة ناعمة على ظهرها ، وترتدى تنورة طويلة يمكن أن تكنس الأرض أحيانًا ..

لها غمازتان لا تظهران إلا حين تضحك ، وهكذا يمكن أن نعرف أن أحدًا لم يرها إلا بغمازتين ..

مدرسة أطفال هى .. وهنا نعرف حقيقة غريبة .. يبدو أن مدارس اليابان أو هذه البلدة بالذات تعمل فى (أغسطس) .. خير مدرسات الأطفال هى من تملك كل صفات الطفولة ، وقد كانت هى طفلة كبيرة لهذا كانوا ينادونها بلا تحفظ (متشيكو) ..

تمشى فى الشارع متجهة إلى المدرسة .. الكل يعرفها .. الكل يحبها ..

بائع البطيخ العجوز ـ الذى وقف يرص شرائحه الحمراء التى يكفى مرآها ليطفئ ظمأك ـ يصيح من بعيد :

ـ « صباح الخير يا (متشيكو) الحسناء ! »

فتصيح بدورها وهى تجد السير فى الشارع :

ـ « صباح جميل يا (نوجوشا سان) .. »

- « أجمل من وجهك يا (متشيكو) ؟ مستحيل .. ياللشيطان ! مستحيل .. مستحيل .. »

ويسعل ويبصق معبرًا عن انبهاره بها ..

وبائعة الزلابية الحسناء تصيح فيها :

- « هل تذوقين الزلابية يا (متشيكو) الحسناء ؟؟ »

- « هل هى لذيذة اليوم يا (كوتيكو) ؟ »

- « ألذ من وجهك ؟ أشهى من غمازتيك ؟ مستحيل ! »

فتضحك وتواصل السير .. إن خطواتها خفيفة جدًا كأن جسدها لايطيق انتظار انعكاسات العضلات وأوامر الأعصاب .. تبدو هذه الأمور بطيئة جدًا بالنسبة لروحها الوثابة ..

ولكن .. ما أجمل الطبيعة ! هذه البلاد تبدو كلها نوعًا من النقوش اليابانية على بساط أو طبق خزفى .. ذات الشعور الذى تشعر به كلما رأت منظرًا فوتوغرافيًا من الصين .. كأن الطبيعة هنا مصممة على أن تتخذ الطراز الصينى أو اليابانى .. حتى الطيور لاتبدو بمظهرها المعتاد .. إنها طيور زخرفية جدًا .. الأشجار شبه مرسومة .. وكذا قمم الجبال من بعيد .. إما أن الطبيعة تقلد الفنان كما قال (أوسكار وايلد Wilde) وإما

أن هؤلاء القوم لم يتعبوا فى صنع الطراز الذى ألفناه فى فنونهم .. هم فقط نقلوا طبيعتهم نقل مسطرة .

وتدخل إلى المدرسة فتقابلها المديرة العجوز ذات الشعر الأشيب .. إنها تقليدية جدًا تعقص شعرها بشكل يوشك معه فمها أن يكون فى جبهتها .. وتلف شالاً على خصرها .. تقول لها بصوت كصوت الرجال المصابين بسرطان الحنجرة، وهى تنحنى محيية :

- « تأخرت يا (متشيكو) .. هل رحت تطاردين الفراش كدأبك ؟ »

- « بل جمعت بعض الورود .. آسفة يا سيدة (كنتاروا) ؟ »

ثم تقدم باقة الزهور للسيدة .. فتشمها فى حزم .. ثم يفلت ذلك الغشاء الرقيق من الصرامة الذى كانت تتخفى وراءه فتضحك فى مرح، فلا أحد يستطيع أن يغضب بحق من (متشيكو) إلا إذا استطعت أن تغضب بحق من قط صغير يعبث فى حذائك .. وتأخذ الزهور إلى غرفتها بينما تجتاز (متشيكو) الجدار الورقى الذى يفصلها عن الصف ..

الأطفال يجلسون على الأرض إلى تلك المنضدة الطويلة التى وضعت عليها عدة مزهريات .. أمامهم ألواح كتابة وقصص أطفال متناثرة هنا وهناك .. وعلى الجدار صورة عملاقة للإمبراطور ..

قالت لهم وهى تجلس على الأرض فى الوضع المنتصب اليابانى الشهير :

ـ « اليوم سأخبركم عن أجمل شىء فى العالم .. »

ـ « ما هو يا (متشيكو) ؟ »

ـ « خمنوا .. »

قالت طفلة تبدو كدمية يابانية ضيقة العينين :

ـ « الأرانب البيضاء .. »

ـ « لا .. هناك ما هو أجمل .. »

قال طفل (ملظلظ) بشدة :

ـ « فطائر السمك .. »

ـ « لا .. »

طفل ثالث :

ـ « بيت الجدة .. »

ـ « لا .. »

ـ « إذن ما هو يا (متشيكو) ؟ »

قالت وهى تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة :

ـ « إنه .. إنه (أغسطس) .. »

★ ★ ★

اسمها (متشيكو زاكو) ..

رقيقة كالزهرة .. دقيقة كالزهرة .. أنيقة كالزهرة .. وهى غارقة فى الحب حتى الأذنين ..

لماذا هو بالذات ؟ لا تدرى .. ربما لأنه خجول .. ربما للطريقة التى يعيد بها تثبيت عويناته المذهبة على أنفه .. ربما لتلك الطريقة التى تسقط فيها خصلات الشعر الأسود على عينه حين ينهمك فى عمل ما .. ربما لأنه يقدسها وهى تحب الرجل الذى يهاب المرأة نوعًا .. تمقت الرجل الذى يظهر لها استهتاره ولا مبالاته باعتبارها ستقع فى حبائله على الفور .. إن (توشيو موكازا) يتعامل مع المرأة باعتبارها كائنًا ساميًا جدًّا .. بعيدًا جدًّا .. أسطوريًّا جدًّا .. لا شىء من عبراتها يجب أن يسيل ليمتزج بالتراب .. لا شىء من أحلامها يجب أن يحلق كالدخان ويتلاشى فى الهواء .. لا شىء من أوامرها يمكن أن تصغى له وتهز كتفيك ..

أمس كانا يمشيان جوار المصرف .. مصرف (زديوتومو)

حيث اعتادا أن يمشيا يوميًا عند الظهيرة ، وهو ذلك المثلث الشهير فى المدينة : مصرف (زديوتومو) ومبنى إدارة الغاز ومبنى (فوكوزايماى) .. كان الحارس يجلس على باب المصرف يراقب الطريق فى شك ، وكل شىء فى عينيه يوحى بالويل ..

نظرت هى عبر سياج المصرف وشهقت .. إن الحديقة أمام عينيها وقد خيل لها - الحديقة - أنها أول من اكتشف الألوان فى العالم .. كأنها طفل وجد أمامه علبة ألوان للمرة الأولى فراح يستعمل كل شىء بإفراط وبذخ وبلا اقتصاد أو تكلف .. الأحمر بأشد درجاته والأزرق كما يجب أن يكون ، والأخضر بكل ظلاله .. وكانت تلك الفراشة تحلق .. أليس غريبًا أنه فى الطبيعة لاتوجد ألوان غير متناسقة ؟ اجعل رجلاً يلبس البنى مع الأزرق والأحمر والأصفر ولسوف تجد أمامك مهرجًا ، بينما الطبيعة تعرف بالضبط درجات الألوان الصحيحة التى تزيدها أناقة ..

هذه الفراشة هنا لأنها شعرت بأنها تضفى لمسة لابد منها إلى المشهد .. وكانت أغرب فراشة رأتها فى حياتها ..

- « توشيو) ! ما أروعها فراشة ! »

هذا ما قالته وأقسم بالله العظيم .. لم تطلب شيئًا على الإطلاق .. وفى اللحظة التالية وجدت (توشيو) يتسلق سياج المصرف ليثب بوثبة واحدة إلى الداخل، ويركض وراء الفراشة .. يتعثر وينهض ..

صاحت فى جزع وهى تتشبث بالسياج :

ـ « عد يا (توشيو موكازا) ! إن الـ ... »

كان قد سقط فوق العشب، وهو يمسك بالفراشة فى يده وهى تهزّ جناحيها محاولة التملص ..

قبض عليها، وفى اللحظة التالية قبض الحارس عليه ..

ـ « أنت تتعدى على أملاك الدولة أيها الشاب المحترم .. أى أنك تتعدى على أرض الإمبراطور ! »

قال الفتى وهو يحاول التملص :

ـ « إنها فراشة أيها الحارس المحترم .. فراشة لا أكثر .. لست لصًا ولا سفاحًا .. »

نظر له الحارس وهو يقتاده إلى خارج السور .. ونظر لها .. ثم نظر له .. وفجأة شقت الضحكة مجراها وسط ملامحه الصارمة، وقال :

- « ولكن .. لا ألومك يا بنى .. أنت عاشق .. »

وأطلق سراحه وهو يغمغم :

- « نعم .. نعم .. أنا كنت عاشقًا يومًا ما .. لن أندهش لو أنك وثبت فى نهر (أوتا) .. إن هاتين الغمازتين قادرتان على تغيير الكون ذاته ، وعلى ترويض الشياطين فوق (فوجى ياما) .. »

وينطلق الفتى بغنيمته إلى جوار ذات الغمازتين .. تتأمل الفراشة الساحرة فى يده غير مصدقة ..

لكنهما ليسا سعيدين .. ثمة شىء بدأ يخيم عليهما ، وجعل الغمازتين تتلاشيان ..

فجأة قالت له :

- « (توشيمو) .. أنت تعرف ما أفكر فيه .. »

- « هو نفس ما أفكر فيه .. »

- « إذن افعله الآن .. »

ومن دون كلمة أخرى فتح كفه فانطلقت الفراشة غير مصدقة بالنجاة .. دارت حولهما دورة ثم أخرى .. كأنما تشكرهما على لطفهما ، ثم ابتعدت ..

وانفجرا يضحكان ...

* * *

يا عود النعنع .. لا تفزع !

خطوة محبوبى كالنسمة ...

لن تسحق رأسك .. والبسمة ..

لا أبدع منها .. لا أروع !

يا عود النعنع هل تلمح تلك النجمة ؟

يا عود النعنع هل تسمع وقع النسمة ؟

موعدنا حان فلا تفزع ..

لا تفزع .. يا عود النعنع !

(عادل قره شولى - شاعر سورى)

* * *

اسمها (متشيكُو زاكو) ..

رقيقة كالزهرة .. دقيقة كالزهرة .. أنيقة كالزهرة ..

والمشاكل كانت على الأبواب

* * *

٣ـ النسر واليمامة ..

إنه (أغسطس) ..

والغريب الذى جاء إلى المدينة ليعمل فى مكتب المحاسبة منذ ثلاثة أشهر لم يعد غريبًا ..

متى تقابلا ؟ لا تذكر .. لعل ذلك كان بينما أرواح الأجداد تسكن أجساد أصحابها .. لكنه يمشى فى نفس الطريق الذى اعتادت أن تمشى فيه وهى ذاهبة إلى المدرسة أو عائدة منها ..

لابد أنها أحبت تلك الطريقة الخجول الهيابة التى يتكلم بها ، أو سقوط خصلة الشعر الأسود على جبينه حين ينهمك بعمل ما .. قال لها إن اسمه (توشيو موكازا) .. قال لها إنها أجمل زهرة نبتت فى حدائق اليابان .. ربما العالم .. ربما الكون .. قال لها إنه رآها يومًا ما قبل أن توجد النجوم .. قال لها إنه يحبها ..

وهى .. هى فضلت الصمت لكن عينى (متشيكو زاكو) تقولان كل شىء بوضوح تام ..

وكانت تؤمن بالفأل .. إن حروف اسميهما بالغة التقارب ، وهذا يعنى أنهما سينسجمان بلا شك ..

قال لها ما قال فى الأول من أغسطس وعرفت هى أنها ستذكر الأيام الأولى من أغسطس للأبد ، سواء كان لها أو لم يكن .. لقد تعطر (أغسطس) بعطر الحب الرقيق الفاغم فلن تزول منه تلكم الرائحة بسهولة .. لحظات نادرة هى تلك التى تعرف وأنت تعيشها أنها ستكون من ذكرياتك الغالية ، وكانت هى تعيش لحظات من هذا الطراز الفريد ..

منذ متى صارت للشمس رائحة ؟ ومنذ متى كان للروائح لون ؟ منذ متى تتحد الحواس لتغدو كيانًا واحدًا عملاقًا يفعل كل شىء ؟ يسمع بأنامله ويتحسس بأذنيه .. ويذوق بأنفه ويشم بلسانه ؟

إنه أغسطس ..

* * *

شكراً لكل دقيقة سمحت بها عيناك فى العمر البخيل .

شكراً لساعات التهور والتحدى واقتطاف المستحيل .

شكراً على سنوات حبك كلها . . .

بخريفها وشتائها . .

وتناقضات سمائها . .

شكراً على زمن البكاء . . ومواسم السهر الطويل .

شكراً على الحزن الجميل . .

نزار قبانى

* * *

إنه أغسطس ..

والجدة (فومورا) يجب أن تعرف ..

هناك أشياء لا تقال للأب ولا الأم ولا الأخت أولاً .. تقال إما للصديقة أو الجدة .. وكانت الجدة ككل جدة يابانية أخرى يحمل وجهها من التجاعيد ما يوحى بأنه ليس وجهًا وإنما هو قطعة ورق (مكرمشة) حاول كلب ابتلاعها وفشل .. وككل جدة أخرى كانت قد فقدت كل ما يجعل المرء شريرًا ، واحتفظت بكل ما اكتسبته من حكمة عبر الأعوام .. إنها فى تلك السن التى يعقد المرء فيها تحالفًا مع الموت .. ليس الموت موتًا لكنه يوم زيارة الأصدقاء والأقارب الذين رحلوا ..

وكانت الجدة جالسة فى الحديقة الخلفية للدار ..

ليس أهل (متشيكو) أثرياء .. لكن بيتهم مريح ، وله حديقة خلفية تطل على حى (نوبويشو) .. أى أنهم كانوا قريبين من قسم الشرطة لو كنت تعرف خارطة البلدة جيدًا ..

كانت الجدة جالسة فى الحديقة الخلفية للدار أمام منضدة صغيرة ، وقد وضعت عليها كتابًا للصلوات .. إن لكل أسرة

هنا ديانتان هما البوذية و(الشنتو) .. وبالطبع لم تكن (عبير) تنوى أن تندمج إلى هذا الحد لكن منظر الجدة بدا لها زخرفيًا يناسب شعورها بأن هذا البلد يتخذ أوضاعًا أيقونية .. فلو دهمت سيارة كلبًا لمات فى وضع أيقونى آخر ..

زحفت (متشيكو) على ركبتيها حتى صارت على بعد سنتيمترات من الجدة ، لكن هذه لم ترها .. الجدة لا ترى أى شىء لا يصطدم بأنفها .. والحقيقة أنها لم تكن تقرأ تلك الصلوات ، بل كانت تردد ما حفظته عن ظهر قلب منذ أعوام .. فقط منظر الكتاب المفتوح يقنعها بأنها ترى ..

- « (متشيكو) ! لم أرك ! »

كأنها كانت ستراها لو لم تكن منهمكة .. وقد ركعت (متشيكو) على ركبتيها جوارها وأخبرتها .. أخبرتها بكل شىء بلا تحفظ .. بينما العجوز تضحك كاشفة عن سن واحدة فضية فى الصف العلوى من لثتها .. وتكرر فى ذكاء :

- « سودسكا .. سودسكا (هكذا إذن ؟) .. »

فى النهاية فرغت (متشيكو) من عصر روحها أمام الجدة ، وتركت لها أن تقرر ما يجب عمله بهذا العصير ..

قالت الجدة :

- « أخته الصغرى .. لابد من أن ترى أخته الصغرى ! إنها مرآته ومنها تعرفين كيف هو من دون قناع .. »

بدا هذا كالطلاسم بالنسبة للفتاة .. ما معنى هذا ؟ لكنها كانت تعرف أسلوب الجدة فى فهم الحياة .. هذا شىء يشبه ألا تشترى حصانًا قبل أن ترى أسنانه ..

سألتها فى حذر :

- « وإن لم تكن له أخت صغرى ؟ »

- « عندئذ فتشى عن أخيه الأصغر .. »

- « وإن لم يكن ؟ »

- « عندها لن يكون جديرًا بحبك يا (متشيكو) الصغيرة ! »

الحق أنها تحتاج إلى عدة عقود حتى تفهم حكمة الجـدة .. ما ذنب الفتى لو لم يكن لديه أخوة صغار ؟ لكن الجدة تؤمـن أن هذه جريمة لا تغتفر ولا يمكن التسامح معها ..

سألتها فى كياسة :

ـ « وهل تقبلون بأن أتزوجه يا جدة (فومورا) ؟ »

ضحكت المرأة طويلاً وقالت فى النهاية :

ـ « لم لا يا (متشيكو) الصغيرة ؟ الكل يتزوج يومًا مـا .. لكنك يمامة فلابد أن تعيشى فـى كنـف نسر .. تـأكدى مـن أنـه نسر ، والأهم تأكدى من أنه يراك يمامة .. »

ـ « أنا متأكدة من الجزء الأخير .. »

ـ « إذن فالأمر سهل .. هى هى هى .. والآن اتركينى قبـل أن يفوت وقت الصلوات .. »

نهضت (متشيكو) متراجعة بظهرها كعادتها مع الكبـار ، فصاحت الجدة تكلم الهواء :

ـ « تذكرى .. أخته الصغيرة ! لا تنسى ! »

* * *

إنه أغسطس ..

إنه قادم من بعيد .. وهى تراه فتشعر بأن قلبها يخفق مع خطواته .. المارة يرمقونها بوجه صلب لكنه حنون .. حبهما اطهر من الندى وأرق من النسيم فلايجرؤ أحد على أن ينظر لهما نظرة لائمة أو حاسدة ..

تسأله فى رقة :

- « هل الحر يرهقك ؟ »

يتشمم الجو فى افتتان ويقول وهو ينزع عويناته المذهبة :

- « لا .. ليس الطقس حارًا .. ما من عاشق يشعر بالحر أو بالقر .. »

ما من عاشقٍ يرى القبح ، وما من عاشق لا يتحمل الإساءة ، وما من عاشق لايشعر بأن الحياة لم تعامله بكرم لايستحقه ..

تمشى جواره قرب حى (نوبويشو) وتسأله وهى تمشى بسرعة كى تلاحق خطواته :

- « هل لك إخوة ؟ »

ـ « نعم .. ثلاثة منهم .. »

ـ « هل هم معك هنا ؟ »

ـ « نعم .. ومعى والدتى .. كنا نعيش فى مزرعة جدتى فى (شيمانى) قبل أن نأتى هنا .. إنهم صغار السن وما كنت لأتركهم مع أمى .. إننى أؤدى دور أبى .. »

ـ « هل لك أخت صغرى ؟ »

ضحك لغرابة السؤال ، ثم قال وهو يقتطف زهرة :

ـ « نعم .. وأنت بالذات تعرفينها .. إنها (هيروكو) .. »

ـ « الطالبة فى الصف عندى ؟ »

ـ « نعم .. »

كانت (هيروكو) هى تلكِ الدمية اليابانية التى تعتقد أن الأرانب البيضاء الصغيرة هى أجمل ما فى الوجود .. دمية تتخيل أنك لو فحصت ظهرها لوجدت موضع البطاريات الجافة مع (صنع فى اليابان ـ لا تشمل البطاريات ـ أجزاء صغيرة قد تسبب خطر الاختناق للأطفال دون الثالثة) ..

إذن هذه هى أخته .. لقد انتهت أسباب قلقك يا جدتى .. لا توجد مشكلة ..

سألته فى اهتمام :

- « والطفلان الآخران ؟ »

- « واحد فى الثامنة والآخر فى الحادية عشرة .. إنهما لطيفان كالملائكة سليمان كالجرس .. تسألين أسئلة عجيبة بعض الشىء .. »

صمتت ولم تقل شيئًا .. لن تخبره طبعًا بسبب اهتمامها ..

* * *

رياح أكتوبر تحرك مياه البحيرة ..
تحرك كسرات ثوبى .. تلامس الأعشاب الرقيقة ..
كان النسيم رقيقًا ، وأردت أن أمسك يدك ..
إن زهور الوادى العنبرية قد غطت على كل شىء ..

(أغنية قديمة لميراى ماتيو)

* * *

إنه أغسطس ..

وتقول لها أمها وهى تعد الحساء بالسمك :

ـ « خذى الحذر يا (متشيكو) .. أنت بريئة .. بريئة جدًا وحلوة .. لقد جئت العالم كى يخدعك أحدهم .. »

هل عرفت شيئًا ؟ لا تعتقد هذا .. إذن هو الحدس .. و(متشيكو) تؤمن مثل أى واحد آخر بالحدس .. لكن هذا التخمين جاء فى وقت لا تتوقعه على الإطلاق .. لهذا ارتبكت ..

تقطع أمها البصل والكرات على حساء السمك ، وتقول :

ـ « إن العالم لا يعج بالشياطين ، لكنه كذلك لا يعج بالملائكة .. »

قالت لها متجاهلة عينيها الثاقبتين :

ـ « هل هذا الكلام يعنى أكثر من النصح ؟ »

قالت الأم فى رفق :

ـ « لا .. لكن السيدة (كنتاروا) كانت هنا منذ ساعات ، وقد أخبرتنى عنك أشياء وأشياء .. . أنا أعرف أنك لم تقارفى خطأ لذا أتكلم .. هذا هو أوان التوقف قبل أن يحدث شىء .. »

ـ « وهل من الخطأ أن يطلب يدى ؟ »

- « ليس من الخطأ .. فليأت إذن .. إن لدارنا بابًا واحدًا وهو السبيل إلى الدخول ، فلماذا يجول فى الأزقة ؟ لماذا لا يأتى مع أسرته للقاء أبيك ؟ »

ثم تذوقت الحساء وتلمظت حينًا وقالت :

- « إنه شهى ، ولسوف يسعد به أبوك .. إنه يعود جائعًا كنسر صغير .. »

كانت رائحة السمك تفوق قدرة (عبير) على الاحتمال .. لو كانت اليابان تحفة فى كل شىء ، فإن مطبخها هو الاستثناء الوحيد .. إن سلق السمك مع الكرنب لا يمكن أن يغرى قطًا جائعًا شريدًا أجرب بأن يأكل ..

لهذا قالت وهى تحبس أنفاسها :

- « سأخرج قليلاً يا أماه .. »

وتراجعت بظهرها إلى الوراء وهى تكرر الانحناء ..

* * *

٤ ـ كذبة بيضاء ..

إنه (أغسطس) ..

وتتجه إلى بائعة الزلابية لتبتاع قطعتين ، وتسألها على سبيل العادة :

ـ « هل هى لذيذة اليوم يا (كوتيكو) ؟ »

ـ « ألذ من وجهك ؟ أشهى من غمازتيك ؟ مستحيل ! »

هذا نوع من الاطمئنان اليومى يشبه ما كانت تقوم به ساحرة (سنوهوايت) التى كانت تستشير المرآة كل يوم ..

وتقضم (متشيكو) قطعة الزلابية .. لذيذة فعلاً ، ومعنى هذا أنها أجمل فتاة على وجه الأرض ..

تسألها البائعة التى لا تقل عنها حسنًا :

ـ « أين فارسنا الوسيم اليوم ؟ »

تنظر لها (عبير) بدهشة .. الموضوع لم يلتهب إلا منذ ثلاثة أيام ، وها هى ذى كل المعمورة تعرف به .. لا بد أن الامبراطور ذاته يتساءل عن كنه هذه العلاقة ..

لم ترد فقالت البائعة :

ـ « شاب وسيم هو .. يناسبك تمامًا يا (متشيكو) الحسناء .. يبدو أنه سيتزوجك .. لكن لو كنت مكانك لصرت أكثر حذرًا .. »

تحشرت لقمة الزلابية فى فمها ، فنظرت إلى البائعة فى عدم فهم :

ـ « ماذا تقولين يا (كوتيكو) ؟ »

قالت البائعة بكياسة :

ـ « إن هذه الأشياء تنتقل من جيل لجيل .. أبى كان يقول إنها نقمة الأجداد علينا .. »

ـ « عم تتكلمين بالضبط ؟ معذرة أنا لا أفهم حرفًا .. »

قالت البائعة وهى تلقى بعض العجين فى المقلاة العملاقة :

ـ « هذان الطفلان .. إنهما مصابان بمرض عضال .. يضعهما معًا على مقعد متحرك ويجوب بهما الحديقة كل يوم عصرًا .. يا للأسى ! كل طفل منهما لا يستطيع رفع حاجبيه فماذا عن يديه ؟ كان لى قريب رزق طفلاً من هذا الطراز ، وقد قال الأطباء فى (طوكيو) ـ ترين أنه كان ثريًا ـ إن طفله مصاب بداء وهن العضلات .. هذا قاس .. خاصة بالنسبة لأب .. لكن ماذا عن أخوى فارسك الوسيم ؟ »

ـ « أخويه ؟ »

هزت البائعة رأسها وهى تقلب الزيت بملعقة خشبية :

- « نعم .. جاء بهما هنا وابتاع لكل منهما زلابية .. سألته عن الطفلين فقال إنهما أخواه .. كان ينادى كلاً منهما بلقب أخى .. »

بدأت (متشيكو)/(عبير) تتوتر .. الفتى قال إن أخويه سليمان .. من الطبيعى أن يخفى أشياء كهذه .. هذه معلومات لاتمنح مجاناً .. ولكن ...

أردفت البائعة :

- « تفهمين قصدى .. طفلان فى الأسرة ذاتها .. هذا الشىء يتحرك فى الذرية .. لو كنت مكانك لـ ... »

ثم أخرجت أول قطعتين من الزلابية ووضعتهما على لفافة من الورق الذى يمتص الزيت ..

- « هل لك فى المزيد ؟ »

- « لا .. »

كانت هذه أول مرة تكلم فيها إنساناً بغلظة .. لكنها لم تتحمل البقاء مع طوفان أفكارها ..

لو كان هذا حقيقيًا فإن زواجها بهذا الفتى الوسيم الخجول أمر مستحيل .. يسهل أن تزعم أنها ستضحى لكن ما ذنب هؤلاء الأطفال الذين سيأتون إلى العالم عاجزين عن رفع الحاجبين ؟

★ ★ ★

إنه أغسطس ..

لكنه لم يعد بالجمال ذاته بالنسبة لها .. ثمة سحابة رمادية تعبر الآن أمام قرص الشمس .. هذه السحابة هى القلق .. قلق من أن يتزوجا فتكون النتيجة مريعة ، وقلق لأنه كذب عليها .. لا لم يكذب عليها .. هى مجرد كذبة بيضاء .. إن المرء لا يفرغ أحشاءه بهذه السهولة لدى معرفته فتاة ..

لكن ماذا لو كان يخطط كى يتزوج تلك الفتاة ؟

وحين قابلته وهو فى طريقه إلى العمل كان يحمل جريدة امتلأت بتلك النقوش اليابانية الجميلة .. وكان يمشى مسرعًا لأنه تأخر ، لذا راحت تلهث وهى تحاول اللحاق بخطواته المتسعة ..

قالت له :

ـ « لماذا لا تأتى لدارنا ؟ »

نظر لهـا .. الحقيقـة أنـه نسى أن الحب يجب أن يتوج بالزواج .. لا يوجد حب للحب إلا فى عقلية شعراء الرومانسية الفرنسيين ، وهو لم يقرأ لهم على كل حال ..

- « بالطبع .. ماذا كنت تظنين ؟ »

- « هل تأتى أسرتك معك ؟ »

- « لا أحد يذهب لطلب يد حبيبته وحيداً ما لم يكن كذلك فعلاً .. »

- « وجميع إخوتك سيأتون معك ؟ »

- « هذا أكيد .. »

- « هل هناك ما لم تخبرنى به عنهم ؟ »

فكر قليلاً ثم هزّ رأسه :

- « لا شىء .. بالتأكيد لا شىء .. »

وهنا كان مكتب المحاسبة الذى يعمل فيه قد صار على بعد مترين ، فهزّ رأسه لها ووثب الدرجات القليلة الصاعدة .. بينما واصلت هى طريقها بنفس السرعة ..

وصلت إلى المدرسة ، فتلقتها المديرة العجوز بالسؤال الدائم

عن سبب تأخرها لكنها فى هذه المرة لم تكن تحمل زهرة واحدة .. كانت تحمل أنفًا محمرًا يوشك على الانفجار .. وتحمل رئتين تشهقان طلبًا للهواء ..

دخلت إلى الصف حيث كان الصغار يلهون ، ولم يبال أحد بدخولها لأنهم يعرفون أنها منهم .. لكنها نادت بصوت عال :

ـ « (هيروكو) .. »

هرعت الصغيرة التى تشبه دمية (صنعت فى اليابان) إليها ، فانحنت ولثمتها .. ثم انتحت بها جانبًا وسألتها :

ـ « هل الطفلان المريضان .. الطفلان اللذان يجلسان على مقعد متحرك أخواك ؟ »

ابتلعت الصغيرة ريقها وقالت :

ـ « (أوزاوا) و(ميكو) .. نعم .. نعم يا (متشيكو) .. هما أخواى .. »

ـ « ولأخوك الأكبر هو (توشيو سان) (*) ؟ »

ـ « نعم .. نعم .. هو أخى .. »

(*) لا أعرف إن كنت قلتها من قبل أم لا .. (سان) معناها (السيد) ..

هكذا أسقط فى يدها .. يجب أن تتعقل .. يجب أن تحسم أمرها .. أولاً من الواضح أنه لم يكن صريحًا معها .. فى المحاكم الغربية يقسم الشاهد على أن يقول الحقيقة .. كل الحقيقة .. ولاشىء غير الحقيقة .. (توشيو) لم يقل كل الحقيقة .. بل لم يقل الحقيقة ذاتها ..

ثانيًا : لم يعد الزواج بهذا الشكل إلا مخاطرة .. اثنان فى أسرة واحدة ! معنى هذا أن الصفات الوراثية موجودة وقوية .. من حق الأطفال المصابين بوهن العضلات أن يعاملوا برفق وينالوا حظ سواهم من الحياة ، لكن من حقهم كذلك ألا يوجدوا لو استطاعوا ذلك! هذا ليس توحشًا .. نحن نتكلم عن الاستشارة الجينية قبل الزواج لا بعده .. قبل أن يأتى هؤلاء التعساء إلى العالم وليس بعده .. و(عبير) لم تكن تعرف شيئًا عن الجينات .. لم يكن أحد يعرف الكثير فى ذلك الزمن ، لكنها تعرف يقينًا أن الخطر قائم ..

وهكذا أدركت أن قصة الحب الأولى فى حياتها قد انتهت ..

وفى موعد العودة كانت فى الطريق إلى دارها حين رأته مقبلاً نحوها وهو يضحك ضحكته المشرقة المرتبكة نوعًا ..

لم تدر ما تقول ولا ما تفعل ..

أطلقت ساقيها للريح وهى تنشج بصوت عال ..

لم تسمع منه إلا صيحة مندهشة مبحوحة :

ـ « (متشيكووووو) ! هل حدث شىء ؟!! »

★ ★ ★

إنه أغسطس ..

إذ خرجت ليلاً لتبتاع العشاء للأسرة ، كان رجال الشرطة وجنود الحرس المدنى يرمقونها فى دهشة .. ماذا أصاب (متشيكو) الحسناء ؟ لماذا ذبلت ضفيرتها ؟ أين ذهبت غمازتاها ؟

كانت تمشى فى الحديقة شاردة الذهن قاصدة بائع الخبز ..

هنا وجدت أنها تحدق فى الصبيين الجالسين على مقعد متحرك ..

كانا فى السابعة من العمر ، متشابهين تمامًا ، وإن كان ضمور العضلات قد جعلهما فى حجم طفلين فى الرابعة من العمر ، ولهذا كان المقعد يتسع لهما بلا مشاكل ..

جوارهما كانت امرأة فى الأربعين من العمر تبتاع الخبز ، وبدا بوضوح أنها أمهما أو خالتهما أو شىء من هذا القبيل ..

تصلبت (عبير) وراحت ترمق المرأة والطفلين .. حقًا كانا يثيران الشفقة .. الرأس ثقيل لايتحمله العنق ، لذا انحنى على الصدر ، والفم لايقدر على الانغلاق لذا هو مفتوح يتدلى منه خيط من اللعاب .. اليدان كجناحى دجاجة ، والساقان كجناحى أوزة ..

التقت عيناها مع المرأة فحنت هذه رأسها كعادة اليابانيين ، ثم عادتا تتبادلان النظرات .. من أنت ؟

فى النهاية قالت (عبير) :

ـ « أهذان أخوا (توشيو سان) ؟ »

بدت الدهشة على المرأة وقالت :

ـ « تعرفينه ؟ »

ـ « نعم .. أعرفه كثيرًا .. »

قالت المرأة وهى تقطع شريحة من الخبز وتدسها فى فم أحد الطفلين :

ـ « إنهما قادران على البلع .. هذا لحسن حظى .. »

ثم أردفت :

- « إنه يكره أن يمر عصر يوم من دون أن يأخذهما للنزهة عصرًا ، ويبتاع لهما الزلابية .. »

هذا الجزء تعرفه (عبير) لكنها لم تبد ذلك ، وهى تمد يدها تربت على رأس أحد الصغيرين البائسين .. وقالت :

- « من حسن الحظ كذلك أن أختهما سليمة تمامًا .. »

قالت المرأة وهى تقطع شريحة أخرى من الخبز :

- « ليست لهما أخت .. »

- « أتحدث عن (هيروكو) .. »

قالت المرأة بلامبالاة وهى تدس الخبز فى فم الأخ الثانى :

- « (هيروكو) أخت (توشيو سان) .. »

تصاعد الدم إلى رأس (عبير) من فرط الغباء البشرى :

- « أى أنها أختهما .. »

- « مجازًا نعم .. إن (توشيو سان) يعتبر طفلى أخويه .. وهما لايناديانه إلا بـ (أخى) .. بل هو يرغم إخوته الحقيقيين على أن يعتبروهما من الأسرة .. بعض الناس هنا يعتبرون الطفلين أخويه فعلاً .. أنا لم أر قط إنسانًا أنبل منه ولا أكرم ..

لقد جئنا هنا منذ شهرين ، وعرفنا أنه سبقنا إلى هنا بشــهر أو أكثر قليلاً .. ومنذ عرف بعاهة طفلىَّ ، وهو يصر على أن يفرج عنهما .. لقد صارا يحبانه أكثر منى أنا أمهما .. »

هتفت (عبير) وأنفاسها تتلاحق :

- « لكنّ له أخوان ذكران ! »

- « نعم ياحسناء .. لكنهما سليمـان كالجرس .. ماذا ظننت ؟ »

* * *

إنه أغسطس ..

و(توشيو) ليس كاذبًا ولا يحمل مورثــات تلك العاهة .. إنــه إنسان نبيل نبيل ، يمقت أن يترك طفليـن يتعذبــان .. والأهم أنه لم يخبرها بذلك قط ولم يتفاخر به ..

كانت تعرف أن قلبهـا ليس بـأحمق .. ليـس ذبابـة غبيـة تحلق ثم تهبط فوق كومة من القـاذورات .. بـل هو فراشـة لا تحط إلا فـوق زهـرة نـادرة .. وهـى تركـت فؤادهـا يختـار فأحسن الاختيار ..

كـانت تعرف أن عينيهـا ليستـا حمقـاوين .. حيـن تريـان النقاء فى إنسان فهو نقى .. لا مجال للخطأ ..

كانت تعرف أن (أغسطس) حكيم عجوز لا يخطئ .. وحين يقرر أغسطس أن يغدو أجمل الفصول ، فإن لهذا تفسيرًا قويًا .. ليس الأمر مصادفة ..

اليوم هو الاثنين .. تصحو من النوم وتقول للعالم : أيها العالم أنا أحبك ..

تهرع فى الشارع مبكرة نحو المدرسة .. الطقس حار أكثر من اللازم مما ينذر بيوم صعب .. ربما أصعب يوم منذ بداية أغسطس ..

الثامنة صباحًا .. لن تلومها المديرة لكنها لن تلقاه كذلك .. لامشكلة .. عندما يحين موعد الانصراف ستقابله .. ولسوف تخبره دامعة أنها حسبت قصة حبها انتهت .. بينما هى بدأت ..

دخلت الفصل ..

إنها الثامنة وعشر دقائق ..

قالت للتلاميذ الجالسين :

ـ « اليوم سأخبركم عن أجمل شىء فى العالم .. »

ـ « ما هو يا (متشيكو) ؟ »

ـ « خمنوا .. »

قالت أخت (توشيو) الحقيقية :

- « طيور السنونو .. »

- « لا .. هناك ما هو أجمل .. »

قال طفل (ملظلظ) بشدة :

- « كعك الزنجبيل .. »

- « لا .. »

طفل ثالث ذكى :

- « أغسطس .. »

- « لا .. »

- « إذن ما هو يا (متشيكو) ؟ »

قالت وهى تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة :

- « إنه .. إنه ..... »

هنا ابيض العالم كله .. ولم تعد تسمع حرفاً ..

لم تعرف ما حدث .. ولن تفهمه إلا بعد زمن طويل ..

لكنها تذكرت فى هذه اللحظة الحاسمة أنها لم تول عناية لاسم البلدة التى تقع فيها هذه الأحداث ..

الآن ترى لافتة تطير في الهواء الساخن ..

لافتة كتب عليها (هيروشيما) ..

إنه أغسطس ..

بالتحديد يوم الاثنين السادس من أغسطس عام ١٩٤٥...

الساعة الثامنة والربع صباحًا !

* * *

الجزء الثانى

الأشـباح

« لو تنبأت بما سيحدث لوددت أن أكون سمكريًا بدلاً مـن عالم طبيعة .. »

أينشتاين

* * *

٥ ـ مخالب الشيطان ..

لم تكن (هيروشيما Hiroshima) قبل السادس من أغسطس مسرحًا للحرب المضطرمة والتى طالت كل مدن اليابان ..

لقد تساءل الناس مرارًا عن سبب كون القنابل لم تهو على (هيروشيما) قط .. واعتقدوا أن مدينتهم محظوظة .. ومن سمعوا صفارات الإنذار فى هذا الصباح لم يولوها اهتمامًا لأنهم اعتادوا أن تمر الطائرات الأمريكية فى سمائهم قاصدة أهدافًا أهم ..

البعض رأى تلك الطائرة تحلق على ارتفاع عال ..

البعض رآها تقذف شيئًا ثم ترتفع ..

لكنهم لم يعلقوا على ذلك أهمية ما ..

فى بادئ الأمر حدث ذلك البريق الناصع ..

لقد زالت الألوان عن كل الموجودات ، والعالم صار بقعة ساطعة من اللون الأبيض حتى حسب الجميع أنهم أصيبوا بالعمى ..

لم تعد ثمة حدود ولا معالم لأى شىء ..

لقد صار العالم كله لاشىء أبيض .. ومعه ساد الصمت .. لم يعد أحد يسمع أى شىء ..

اللحظة التالية هى لحظة الحرارة ..

فجأة شعر الناس كأنما الشمس قد هوت من السماء لتسقط فوقهم .. إن اليابانيين وثنيون يؤمنون بخليط غريب من المعبودات ، لذا حسبوا أن إله الشمس جاء شخصيًا إلى بلدتهم المتواضعة ..

وفى خمسين ألف جسد من الأجساد التى لم تتفحم فورًا ، تركت الحروق علامة سيطلق عليها فيما بعد اسم (مخالب الشيطان) ..

وعلى بعد خمسين أو ستين كيلومترًا سمع الناس صوت البركان الهادر ..

نبحت الكلاب فى القرى البعيدة ، وثارت الخيول ، لكن الإنسان لم يفهم ..

الآن بدأت مرحلة الأعاصير ...

أعاصير عنيفة تطير كل شىء .. تمزق الثياب .. تطير الأطفال فى الهواء .. تنتزع أعمدة النور واللافتات وتقلب السيارات .. ومعها جاء الغبار ليغطى كل شىء .. ثم انسحب الغبار ..

وتغلف سماء المدينة سحابة سوداء ثقيلة .. كأنما هم جربوا النور التام والظلام التام فى ثوان .. وفى كلتا الحالتين هم لا يبصرون شيئًا ..

الآن انتهت المرحلة الثالثة .. تنحت المؤثرات السابقة لتفسح المسرح للممثل المرهوب المخيف : النار ..

اندلعت النيران تجتاح كل شىء بلا رحمة .. والغريب أنها اتخذت صورة القطار الذى يشق طريقه فى حماسة وجرأة بين البيوت على الجانبين .. قطار يعرف كيف يدخل الأزقة ، وكيف يدخل من النوافذ ..

وراح الناس يصرخون ويركضون ..

لكن النار كانت أسرع منهم ، لذا بدا المشهد كأنها كائنات عجيبة تتكون أجسادها من النيران .. وكأننا هبطنا على كوكب فضائى مجهول ..

لقد بدأ العصر الذرى ...

★ ★ ★

يمكن القول بدقة إن القنبلة سقطت فى المثلث الذى يتكون من مصرف (زديوتومو) وبناية (فوكوزايماى) وإدارة الغاز ..

نفس الموضع الذى كانت (عبير) تمشى فيه منذ أيام مع فارسها الرقيق (توشيو)..

ترى كم فراشة احترقت ؟ كم زهرة تفحمت ؟

طبعًا لا أحد يفكر فى أمور كهذه لأن حرارة القنبلة أذابت الأعمدة الخرسانية ذاتها ، وما زالت حتى اليوم توجد صورًا لأشخاص كانوا يقفون أو يتكلمون حين سقطت القنبلة .. لقد قامت الحرارة المشعة بتحميض صور هؤلاء وطبعها على الأسفلت .. لابد أن صورة الحارس الواقف على باب المصرف مطبوعة يراها سياح (هيروشيما) اليوم ..

هذه الدائرة التى يمتد قطرها أربعة كيلومترات هى منطقة الفناء الشامل .. هى منطقة (اللابشر) .. حيث لم يفلت فيروس ولانملة ولاقط ولا إنسان من الفناء .. ليس الفناء بل التبخر ..

مدرسة (عبير) كانت بعيدة عن هذا كله ...

لا لم تنج .. مازال على القنبلة أن تقضى على مائتى ألف يابانى فى ذلك اليوم المشئوم ..

لقد اندفعت النيران إلى داخل الصف ، وسمعت الأطفال يصرخون .. هل مستها النار ؟ لاتعرف ..

كل ما تعرفه أنها شعرت بحاجتها إلى ألف يد .. لم تكن لديها إلا يدان احتضنت بهما طفلين واندفعت نحو الباب .. وفى الخارج لم تصدق ما تراه ..

الشارع الجميل تحول كله إلى نيران .. والسماء بلون حذائك الأسود أو قلب عدوك ..

ألقت بالطفلين على الأرض ، ثم عادت تبحث عن المزيد .. لكن النيران والدخان يحاصرانها .. لا تخطو خطوة من دون أن يهوى فوقها شىء ما .. فى النهايةَ مدت يدها بين الأطفال والتقطت ثلاثة يصرخون كقطط صغيرة عمياء ، وهرعت إلى الخارج ..

ألقتهم على الأرض وأعادت الكرة ..

لكن الأمر صار مستحيلاً هذه المرة .. لقد اكتمل جدار النيران فلم تعد تستطيع أن تبصق من خلاله ..

لم تنقذ إلا خمسة أطفال ! لم تنقذ إلا خمسة أطفال ..

وهرعت إلى الخارج لتصطدم برجل يمشى فى هدوء وسط هذه النيران ..

قال لها وهو يواصل المشى :

- « إنها نهاية العالم يا رجل .. نهاية العالم .. »

رجل ؟ ثم فطنت إلى أنه لا يبصر شيئاً .. فى الواقع لم يعد له رأس .. كتلة متفحمة تعلو عنقه يصدر منها صوت .. إنه مجرد شبح يمشى كما يمشى الزومبى فى القصص المخيفة .. مشى بضع خطوات ثم هوى على وجهه بلا حراك ..

لأين تذهب ؟ ماذا تفعل ؟

هى تملك مزية واحدة لا يملكها هؤلاء .. إنها تعرف ما يحدث .. تعرف أن المرشد الوغد اختار لها مغامرة عاطفية فى (هيروشيما) يوم سقوط القنبلة ، أما هؤلاء القوم فلم يروا شيئاً كهذا من قبل .. وأكثرهم ماتوا أو سيموتون دون أن يفهموا ..

كان جدار النيران يسد الشارع ، ورأت مجموعة من الشباب يركضون .. يركضون نحو النيران ذاتها .. ما هذا ؟ هل فقدوا صوابهم ؟

- « انتظروا !! أنتم ! »

لكنهم غابوا وسط النيران .. فلم يطلق أحدهم صرخة ..

لقد أصابهم العمى من وهج القنبلة فلم يعودوا يعرفون أين النار ..

هكذا راحت تركض فى طريق ملتو .. الأطفال معها .. لاتعرف إلى أين تذهب بهم ولا ماذا تفعل ..

لم تنقذ إلا خمسة أطفال ! لم تنقذ إلا خمسة أطفال ..

وعبر الشارع رأت حافلة محترقة .. لم يبق منها إلا هيكل منصهر أسود .. ومن النوافذ ترى قطعًا من الفحم لا أكثر ولا أقل ..

وسمعت من يصيح بها :

- « إلى النهر يافتاة ! إلى النهر ! لاسبيل للنجاة إلا النهر .. »

إنه الجحيم .. لم تعد تميز أى شارع ولا أى اتجاه .. المدينة كلها تحولت إلى دائرة رماد تحيط بها دائرة أوسع من البيوت المحترقة ..

ثمة امرأة عجوز تنبش فى كومة رماد ، ثم تخرج منه عظمة صغيرة يتصاعد منها الدخان .. تصرخ وهى تضحك :

- « هذا هو ماتبقى من ابنى ! لقد وجدته ! هاهاها !! »

وحيدة تقف وسط الرماد ملوحة بالعظمة ، وقد راحت تضحك وتضحك .. شعرها يتصاعد منه الدخان ، فبدت كأنها إحدى ساحرات (ماكبث Macbeth) ..

أشاحت (عبير) برأسها عن المشهد .. هى لاتصدق .. كل

هذا أكبر من أن يستوعبه عقلها .. لكنها ستجد الوقت الكافى فيما بعد كى ترتاع .. كى تقدر المأساة حق قدرها .. كى تتحدث عن الوحشية التى لا توصف حين ...

رباه ! أبواها وجدتها !

انحنت أرضًا ونظرت حولها .. على الأقل لا تهب النار على هذا المكان .. لذا قالت للأطفال الباكين :

- « انتظروا هنا بلا حراك .. »

إنهم يصرخون ويبكون فلا يسمعون ما تقول .. عادت تكرر الأمر فلم يصغ أحد ..

- « اخرسوا !! »

لا شىء يحطم الأعصاب أكثر من عويل طفل لا يتوقف ولا يفسح مجالاً للتعقل .. إنك تشعر بأن كل دمعة تذيب عصبًا من جهازك العصبى .. هذه المرة فهموا فتركتهم حيث هم ، وراحت تركض فى الشوارع التى لم تعد شوارع .. هى فقط تعرف أن هذه الحافلة المحترقة كانت تمشى فى شارع من قبل .. إذن المقدمة تشير إلى ما كان فتحته من ساعة واحدة ..

إنه لكابوس .. الجثث على الإفريز فى كل مكان .. لكنها كفت عن أن تكون جثثًا .. هذه قطع من الفحم ..

وكاهن من (الشنتو) يقف وسط الطريق عاريًا تقريبًا بعد ما أطارت الأعاصير ثيابه .. يعوى مرددًا :

ـ « هلك الجميع .. هلك الجميع ! »

ثم رآها فصاح :

ـ « أنت أيضًا هالكة يا فتاة .. لا تحسبى أنك فررت .. إن (البيكادون) يجد الجميع ! »

(البيكا) لفظ يابانى معناه (الضوء) .. و(دون) معناه (الصخب) .. هو يتحدث عن الضوء والصخب اللذين هبطا من السماء على غير إنذار .. وبعدهما لم تعد الحياة كما كانت ..

واصلت ركضها نحو حى (نوبويشو) حيث كانت دارها ..

هذا هو المكان .. بالتأكيد هو لكن لم يعد هناك بيت .. لقد صار المكان ساحة خالية تتناثر فيها أشياء تحترق .. أين أبى وأمى ؟ فقط فلتدع الله ألا يكونا فى الدار وقتها ..

وفى الحديقة الخلفية ـ أو حيث كانت ـ رأت كومة من الرماد المتصلب .. لو أمعنت النظر لأدركت أنها تمثل تمثالاً متقنًا لامرأة جالسة على ركبتيها .. لا شك أنها كانت تطالع كتاب صلوات حين طرأ الانفجار .. إنها الجدة .. نعم .. لا شك فى هذا .. دنت منها لتلمسها لكن الحرارة الحارقة المتصاعدة من الرماد جعلتها تتراجع ...

- «الكل يتزوج يومًا ما .. لكنك يمامة فلابد أن تعيشى فى كتف نسر .. تأكدى من أنه نسر ، والأهم من أنه يراك يمامة .. »

هذه الكلمات خرجت من هذا الرماد منذ يومين أو أقل ..

من يصدق هذا ؟

وهكذا غادرت المكان دامعة العينين .. لا لم تدمع عيناها لسبب لم تفهمه .. لكنها فعلت كل ما يفعله الباكون من أنين ونهنهة ..

لو كان ظنها صحيحًا فهى تمشى الآن فى ذات الطريق الذى كانت تمشى فيه وهى ذاهبة للمدرسة .. من هنا كان (توشيو) يمشى .. لابد أنه كان قد غادر داره حين وقع الانفجار ..

ترى هل هو قد ...... ؟ لا تعتقد ذلك .. لماذا ؟ لأن الحياة ليست بهذه القسوة ..

لكن هل هى ليست بهذه القسوة فعلاً ؟ كم من أطفال صفها أنقذتهم ولم يحترقوا أحياء ؟ إذن كل شىء ممكن .. كل شىء ممكن ..

وفى الطريق كان هناك جدار أسود اللون بقى وحده وسط مساحة خالية من أية بناية أو أى أثر بشرى ..

رأت شيئًا ملتصقًا بالجدار .. أدركت أن هذا إنسان أذابه الانفجار ليحيله إلى جزء من الجدار ذاته .. من فضلك لاتكن أنت .. أرجوك لاتكن أنت .. لو سمحت لى لاتكن أنت ..

لكنك أنت !

كانت معالمه قد تلاشت لكنها ترى أنه كان يضع عوينات .. وأنها مذهبة .. لقد ذابت تمامًا لتبدو كأنها رسمت على رأسه بقلم مذهب .. فتح فمه فى صرخة صامتة ستسكن كوابيسها للأبد ..

كان هذا كافيًا ..

راحت تركض وسط النيران صارخة :

- « القتلة !! القتلة !! »

* * *

٦ - النهـر..

إنه أغسطس ..

والآن صارت (متشيكو) الحسناء ذات الضفيرة بلاضفيرة .. بلا أهل .. بلاحبيب .. بلا بيت ...

الأدهى أنها كانت مدركة تمامًا لحقيقة أنها لـم تفلت من مخالب الشيطان .. من حولها يجهلون معنى التلـوث الإشعاعى، لكنها تعرف .. وتعرف أن جسدها امتص كميات هائلة من هذا التلوث تكفى لتشغيل مفاعل ..

فجأة تسمع عند المنعطف غناء ..

إنه نشـيد دينـى يابـانى مـن الأناشـيد التـى يودعون بهـا الموتى .. تكنو أكثر فترى ثلاثة شبان - أو كانوا كذلك - يجلسون على الإفريز - أو ما كان كذلك - ويغنون بصوت واحـد تلـك الأغنية ..

أحدهم كان مازال يملك عينيه فصاح بها :

- « أيتها الفتاة .. نحن نريد جرعة ماء .. »

ذكرها منظرهم بأشباح الأساطير الإغريقية الجالسة فى مملكة الموتى تتسول قطرة لبن كى تملك القدرة على التعبير عن نفسها ..

هكذا ركضت إلى النهر .. استغرق الأمر مسافة لا بأس بها وجهدًا جهيدًا ، فقط لتدرك أنها لا تملك شيئًا تضع فيه الماء .. راحت تفتش حولها ..

أخيرًا وجدت جثة جندى مغمورة فى الماء والخوذة على رأسه ..

آسفة أيها الجندى .. أنا لن أهينك .. فقط أريد أن أنقذ ثلاثة حيوات ..

انتزعت الخوذة من على رأسه بصعوبة ، وكانت ساخنة كالفرن .. ملأتها بالماء الموحل الملوث الساخن ، ونهضت .. راحت تركض جارية إلى حيث كان أولئك الفتية ..

المهم أن تسرع .. من المحزن أن عمر أكبرهم لا يتجاوز الستة عشر عامًا ..

أخيرًا دنت منهم فى مجلسهم ، وأثار دهشتها أنهم كفوا عن الغناء .. هل هدأت نفوسهم أم ؟

بالفعل .. لا أحد منهم يتحرك .. لقد لفظوا أنفاسهم جميعًا ..

نظرت إلى الخوذة المليئة بالماء فى يدها .. هل تشعر بظمأ ؟ ربما .. هى لا تعرف الآن إن كانت ظامئة أم لا .. هكذا ألقت الخوذة بما فيها جوار الفتية وانطلقت عائدة إلى حيث تركت الأطفال ..

عليها أن تأخذهم إلى النهر .. لو كانت مسئولة عن نفسها لظلت حيث هى إلى أن تموت .. لكنها مسئولة عن أطفال ..

إن حالة (هيروكو) الصغيرة تثير قلقها .. لقد احترق أكثر جسدها .. صحيح أن وجهها لم يمس لكن من الواضح أن كل ما عدا ذلك فى غاية السوء ..

قالت الصغيرة وهى تنتحب :

ـ « أمى .. أخى (توشيو) .. أين هو ؟ »

ـ « بخير .. كلهم بخير .. وقد نجوا كما نجوت أنت .. »

لماذا يغدو الكذب عسيرًا بهذا الشكل ، بينما كل الناس يكذبون طيلة الوقت ؟ لماذا تخرج الكلمات من صدرك فتصطدم بالغصة التى تسد حنجرتك ، وتقاوم للخروج كما يقاوم راكب الحافلة للخروج منها فى القاهرة فى وقت الذروة ؟

صاحت فى الأطفال :

ـ « سنتجه إلى النهر .. إلى النهر ! »

وفى الطريق استطاعت أن ترى سيارة إطفاء .. جميل ! مازال هناك أثر للحكومة هنا .. لكن ماذا بوسع الإطفائيين الشجعان أن يفعلوا ؟ لم يعد الأمر يتعلق بمواضع محترقة فى المدينة ، بل مواضع من المدينة وسط الحريق ...

وفجأة ذابت عجلات السيارة فوق الأسفلت الساخن .. ووقفت حيث هى ..

زحام الناس المتجهين إلى النهر .. هناك ما يشبه الموكب وسط هذا الزحام ..هذا غريب ! مشهد لا يمكن تفسيره أو فهمه ..

فى مقدمة الموكب يمشى رجل بخطوات عسكرية وهو يحمل صورة عملاقة .. ويصيح فى الناس :

- « هيئوا لى مكانًا ! إننى أنقذ القيصر .. إن (هيروهيتو) آت !! »

فيفسح النَاس له طريقًا فى احترام ..

وما لم تعرفه (عبير) إلا بعد فترة هو أن الرجل هو (هيروهاتا) الذى يعمل فى مصلحة الهاتف .. حين وقعت الواقعة لم يجل فى ذهنه إلا خاطر واحد هو أن ينقذ صورة القيصر من الحريق ، باعتباره رمز اليابان .. دعك من عقيدة اليابانيين التى تقدّس هذا الرجل باعتباره الشمس ذاتها وقد تحولت إلى إنسان ..

وكان عمل هذا الرجل - (هيروهاتا) - فى مصلحة الهاتف يتركز فى أنه حامى حمى صورة القيصر .. موضوعة هى فى موضع بارز من المصلحة فى غرفة خاصة .. وكان

الموظفون يمرون بها فى الأعياد لينظروا لها باحترام من دون أن يطيلوا النظر لأن هذا حرام لديهم ..

وكان أول ما خطر للرجل أن ينقذ صورة الإمبراطور من الحريق .. لاحظ أن عليه أن ينقذ شيئًا لا يحق له التحديق الطويل فيه ، مما يصعب الأمر .. اخترق النيران والدخان حتى وصل إلى القاعة وحمل الصورة .. وببطء بدأت تتكون حوله مظاهرة من الأهالى ..

لقد بدا لهم كأن هناك هدفًا لحياتهم ، وأن كل شىء ممكن ما دام (هيروهيتو) لم يحترق ..

فى الصورة يقف (هيروهيتو) حاملاً سيفًا من عهد الساموراى samurai الشجعان ، وقد غطى ذراعيه برقائق الذهب ، وارتدى ثيابًا تشبه ثياب التشريفة عندنا ..

- « هيئوا لى مكانًا ! إننى أنقذ القيصر .. إن (هيروهيتو) آت !! »

ويمشى فى الشارع وقد بدأت تتكون حوله مظاهرة صغيرة .. لقد نصحوه بأن يتجه إلى الغرب ، نحو الجبال ..

يشق طريقه وسط الزحام والدخان يتصاعد من شعره

وثيابه .. بينما يقف الجنود على الجانبين يحيون صورة الإمبراطور .. من حين لآخر يلتصق حذاءاه بالأسفلت فيتوقف حتى يحررهما ..

كلاب ملتصقة بالأسفلت تعوى وتحاول التحرر .. بشر يحاولون أن ينهضوا ليحيوا القيصر ..

وقال قائل :

- « إلى نهر (كيوباتشى) .. من هناك تصل إلى الجبال .. »

وهكذا مشى الجمع نحو النهر المذكور الذى تقود إليه حدائق (سنتاى) .. وكان هناك نحو عشرين ألفًا من البشر يحاولون النجاة بحياتهم .. لكنهم سمعوا النداء : القيصر قادم .. فبدءوا يفسحون طريقًا ..

وعلى ضفة النهر المواجهة رأى (هيروهاتا) ضابطًا يحاول إعادة تنظيم جنوده .. فصرخ فيه :

- « أرسلوا لى قاربًا .. إننى احمل صورة القيصر !! »

هنا رفع الضابط سيفه ملوحًا بالتحية ، وأمر جنوده بأداء التحية من الجانب الآخر ..

وسرعان ما عبر النهر قارب يحمل الضابط وجنديًا ليحصلوا على صورة القيصر ..

وصاح الضابط فى المحتشدين :

ـ « ابتعدوا ! سأقتل أى شخص يعترض سبيل القيصر !! »

وسرعان ما ركب (هيروهاتو) القارب معهم .. وابتعد القارب عن الآلاف الباكين المعذبين المتضرعين ..

سوف يعبر القناطر ويتوقف على بعد خمسة كيلومترات من مكان المأساة ، وفى المساء سيستقر القيصر فوق جبل (كاشوياما) ...

شاهدت (عبير) هذا كله فتصارعها شعوران نقيضان : العجب من هذا كله وكل هذا التقديس لصورة ، بينما الناس يموتون ويحترقون فعلاً .. لا وقت لهذه السخافات .. الشعور الثانى هو الإعجاب بإرادة هؤلاء القوم وإصرارهم على الحفاظ على رمز وجودهم .. لقد تحولت هذه الصورة إلى اليابان ذاتها ، وصار من المحتم أن تنجو بأى ثمن .. إن التى عبرت النهر هى إرادة الحياة لدى اليابانيين ، وهى التى لم تحترق واتخذت مكانها فوق الجبل ..

للأسف لا وقت للتأملات الفلسفية ..

الآن هى ترى نهر (كوباشى) أكثر هدوءًا بعدما رحلت صورة القيصر ..

لكنها ترى كذلك أن الأمر يشبه الكوابيس ..

آلاف الرجال والنساء يهرعون إلى هناك وهم يصرخون .. هذا هو المنجى الوحيد على ما يبدو فى (هيروشيما) كلها .. وهكذا يتحول الأمر إلى صورة رهيبة من صور الطوفان أو لوحات (الجرييكو Greco) الكابوسية .. لا أحد يعرف من هو ولا يبالى بعريه ولا بشىء إلا الهرب من الحريق ..

لم تعد ترى النهر .. لكنها على كل حال شقت طريقها بالأطفال وغمرتهم فى الماء بين الأجساد المتلاطمة .. تقسم إنها تسمع الماء يصدر صوت (طش ش ش) لدى ملامسة الأجساد الصغيرة ..

أطفال يبحثون عن أمهاتهم صارخين ، وأمهات يبحثن عن صغارهن صارخات ..

والغريب أن الكل كان يصرخ ولا يتكلم .. لا أحد يتساءل عما حدث أو يحاول فهمه ..بدأت الأمطار تهطل .. فراح الناس يهللون فرحًا بالخلاص القادم ، لكن (عبير) بالطبع تسبقهم خبرة بعالم الذرة .. إن هذه القطرات تعبر الغلاف الذرى الذى صنعته القنبلة ، وبالتالى تتحول إلى عصير مشع يهبط على الأرض ليزيد الأمور تعقيدًا .. الآن ثيابها مبللة بالكامل ، لكنه (ماء ذرى) لو لم نرد الدقة ...

إن من نجا من النار لن ينجو من الأمطار ..

وجاءت مجموعة من الجنود اليابانيين بسيارة لاتعرف كيف تحملت الحرارة ، وجروا إلى النهر حاملين مجموعة من الأطفال ، وألقوهم فى الماء .. ثم إنهم رفعوا بعض الجثث الطافية وحملوها إلى سيارتهم ..

صاحت (عبير) وسط الضجيج :

ـ « إلى أين تأخذون الجثث ؟ »

قال لها جندى احترق نصف وجهه :

ـ « حفرنا بعض الحفر .. نلقى فيها الجثث بعد مانرش عليها الجير الحى .. »

بينما تناول جندى آخر مكبر صوت ، وصاح بالطريقة اليابانية العسكرية التى تبدو كطلقات رصاص :

ـ « سنحمل الجرحى فى قوارب إلى جزيرة (ميتى) .. ليس لدينا عدد كاف .. فلتختاروا أحوجكم لذلك .. »

قررت (عبير) أن هذه هى الطريقة المثلى لإنقاذ الأطفال ، فهرعت إلى الجندى ..

ـ « أين ؟ »

- « عند فرع النهر الآخر .. »

قالت وهى تشير إلى الأطفال :

- « سيركبون معكم .. لا بد من إبعادهم .. »

قال وهو ينظر لها نظرة سريعة :

- « وأنت كذلك .. لابد من إسعاف سريع .. »

إسعاف سريع ؟ إنها سليمة تمامًا .. ماذا يقصد ؟

كانت بندقيته على كتفه فانتزع السونكى .. السونكى البراق الشبيه بالمرآة وناولها إياه ، وهزّ رأسه بإشارة ذات معنى .. رفعته أمام وجهها لترى ما دهاها فلم تر نفسها ..

من هذا الشبح المخيف الذى يقف وراءها ويتأمل نفسه فى انعكاس السونكى ؟ وسط الدخان ووهج النيران ينظر لها .. فلو رأته فى فيلم رعب لضمنت الأرق عدة أشهر .. لكن ...

إنها هى !

لقد زال شعرها تمامًا ، بينما تحول وجهها إلى عجين أحمر يطل منه ثقبان هما عيناها ، وفمها ثقب ثالث يشبه فم الذبابة لو كان يبدو كهذا ..

الغريب أنها لم تشعر بألم .. وتذكرت ما سمعته من الأطباء يومًا أن الحروق البالغة تحرق الأعصاب ذاتها فلا يبقى شعور بالألم .. الأغرب هنا أن الأطفال لم يخافوا منظرها ولم يصرخوا .. لقد أنساهم الرعب أن عليهم أن يتصرفوا كأطفال ..

وجهها تلاشى .. سيكون عندها وقت كاف فيما بعد كى تصرخ وتولول .. أما الآن فرصيد الأوجاع كبير جدًا .. لا يمكن استيعابه بهذه السرعة ..

لهذا إذن لم تدمع عيناها حين بكت ..

أعادت له السونكى .. ولم تقل شيئًا .. فأفسح لها الطريق كى تتجه إلى القوارب ..



إنه أغسطس ..

والقارب يشق طريقه وسط المياه تحت سماء سوداء مكفهرة .. ووسط الجثث .. رحلة خيالية لا يمكن أن تكون خطرت لـ (هوميروس Homer) وهو يصف عبور الأرواح لنهر (ستيكس) إلى مملكة الموت (هيدز Hades) ..

فكرت فى المرشد .. ذلك الوغد الذى ألقاها فى هذا العالم

دون أن يمهدها له .. وأسوأ شيء أنها تعرف أن كل ما يدور من حولها واقع مرير .. حدث بالفعل وليس وليد خيال مؤلف .. إن الحياة نفسها أكثر جرأة وأجمح خيالاً من الفنان .. فى الطبيعة يمكن أن يسقط نيزك من الفضاء الخارجى ليقتل الشرير ، بينما لا يمكن أن يكتب الأديب ذلك وهو بكامل قواه العقلية .. فى الطبيعة يمكن أن تلقى أمريكا قنبلة ذرية على مدينة سكنية عادية لمجرد أنها تريد تجربتها ، بينما لا يجسر أديب مجنون على تخيل ذلك ..

كانت جالسة تحتضن الصغير البدين (أكوكو) الذى يرى أن فطائر السمك هى أجمل ما فى الوجود .. هنا سمعت الطفلة الجميلة (هيروكو) تناديها فى وهن ..

ـ « ماذا تريدين ؟ »

قالت (هيروكو) وهى تخلع حقيبتها عن كتفها بصعوبة بسبب الحروق (ولم تلحظ عبير أنها كانت معها منذ الصباح) :

ـ « أعتقد أننى سأموت الآن .. »

ـ « كفى عن الحماقة يا (هيروكو) .. »

لم تعلق الطفلة وناولتها الحقيبة وقالت :

ـ « إن (أكوكو) جائع .. فى الحقيبة طعام إفطارى الذى أعدته لى أمى صباحًا ولم أمسه .. أرجو أن تعطيه إياه .. »

صاحت فى جنون :

ـ « ألن تكفى عن هذا ؟ »

ـ « قلت لك إننى سأموت الآن فلن أحتاج إليه .. »

وناولتها الحقيبة وهى تهمس :

ـ « لو قابلت أمى فلا تخبريها بأننى احترقت .. »

نظرت (عبير) إلى الحقيبة فى يدها غير فاهمة .. ثم رفعت عينيها فوجدت أن الطفلة قد أغمضت عينيها للأبد .. بهذه السرعة رحلت (هيروكو) الدمية المصنوعة فى اليابان والتى تعمل بالبطاريات الجافة (*) ..

هنا انفجرت (عبير) فى البكاء .. وأثار ذهولها أن الدموع الساخنة كانت تجرى على خديها .. يبدو أن قوة العاطفة مزقت الالتصاقات التى كانت تسد مجرى دموعها ..

ودعت الله أن تموت الآن حتى لا تتذكر هذا المشهد ثانية ..

★ ★ ★

(★) هذا المشهد المحطم للأعصاب ليس وليد خيال المؤلف ، لكنه حدث حرفيًا ..

إنه أغسطس ..

كان الظمأ يخنقها .. لاتعرف إن كان هو الظمأ أم كل الأبخرة الحارقة التى ابتلعتها ..

فتشت فى حقيبة (هيروكو) عن شىء يشرب .. بعض الماء أو العصير .. نعم .. هذه زجاجة عصير .. رفعتها إلى فمها وحاولت أن تشرب لكن دون جدوى .. إنها عاجزة عن الابتلاع تمامًا .. لقد تحولت عضلات بلعومها إلى كتلة هلامية اختلطت بلسانها فلم تعد قادرة على ممارسة النشاط الانعكاسى المحموم المسمى بالبلع ..

قالت لها امرأة تجلس فى القارب :

ـ « صبرًا أيتها التعسة .. سأدبر الأمر .. »

وكأنها طفل جعلتها المرأة تريح رأسها على فخذها .. ثم أمسكت بثمرة طماطم ، وراحت تعصرها عصرًا من خلال الثقب الذى صار هو فم (عبير) .. ويبدو أن العصير وجد طريقه بقوانين الجاذبية ..

العصير يتسرب إلى جوفها .. ينعشها .. يرطبها .. إنها ستقاوم .. ستعيش ..

* * *

الجزء الثالث

الصقــور

« أنباء طيبة ..

يبدو أنه برغم كل شىء أحبهم ..

كانت أوامره هى أن يحرق عظامهم حتى تتفحم ..

حمل القنبلة وتركها تسقط

بعد هذا كان عليه أن يتقاضى المال ..

معاش بطل .. لكنه لم يلمسه ..

من العبث أن تسأله عن السبب ..

من العبث أن تسأله : لماذا ؟ »

أنشودة الميجور إيثرلى (أحد طيارى القنبلة الذرية)

للشاعر جون بارينجتون وين

★ ★ ★

٧ ـ ما هذا الذى فعلناه ؟

إنه أغسطس ...

فى ساعة مبكرة من صباح السادس من أغسطس ..

يقف الميجور الأمريكى (توماس فيريبى) يدخن لفافة تبغه الأخيرة قبل الإقلاع .. الكل من حوله يهرع ويتشاجر ، يتعثر ويرتبك ، لكنه بارد تمامًا .. حتى لفافة التبغ لا تهتزّ بين شفتيه ..

ربما كانت هذه من الأسباب التى رشحته لهذه المهمة بالذات ، فهو من أقوى الطيارين أعصابًا ورباطة جأش ..

أضف لهذا أنه ـ هو بالذات ـ واحد من الذين اختاروا هدف القنبلة ، بعد عدة ساعات من الطيران فوق اليابان كلها .. لا أحد على جزيرة (تيتان) الواقعة فى المحيط الهادى يعرف السر .. قليل جدًا من العاملين بالقاعدة يعرف كنه تلك القنبلة الغامضة القادرة على إنهاء الحرب فى ثوان ..

ثم جاء توجيه القائد الأعلى فى الثالث من أغسطس :

ـ « على الوحدة ٥٠٩ التابعة للكتيبة ٢٠ من القوات الجوية الأمريكية أن تلقى القنبلة الذرية على إحدى المدن التالية : (هيروشيما) أو (كوهارا) أو (نيجاتا) أو (ناجازاكى) .. »

إن (هيروشيما) تقع جنوبى جزيرة (هونشو Honshu) اليابانية .. على خليج (هيروشيما) .. تم بناؤها من قرون على دلتا نهر (أوتا) .. وهى بكل الأحوال هدف مناسب .. فلم يكن أحد ينوى ضرب (طوكيو) ..

وبعد منتصف ليلة السادس من أغسطس أقلعت ثلاث قاذفات قنابل من طراز (ب ـ ٢٩) نحو (هيروشيما) .. وكان الميجور (فيريبى) بارد الأعصاب يقود طائرة المقدمة المسماه (إينولاجاى Enola Gay) وهو يلوك قطعة من اللادن .. الطائرتان الأخريان مهمتهما الحراسة والتصوير فقط ..

إنه يحفظ اليابان والمحيط الهادى شبرًا شبرًا ..

الآن تبدو له السواحل اليابانية فى ضوء الفجر .. مساحات من الخضرة بارعة الحسن ..

يتذكر فى مرارة هجومًا مماثلاً حدث فى الفجر من قبل ، لكن المهاجم ـ بفتح الجيم ـ كان الأمريكيين .. أسطولهم فى (بيرل هاربور Pearl Harbor) تلقى ضربة قاصمة عند الفجر .. لكن اليابان هذه المرة ستهزم بقنبلة واحدة تسقطها طائرة واحدة ..

وفى الطائرة التى تقوم بالتصوير قال المصور لمن معه :

ـ « لاحظوا يا سادة أن هذه اللقطات تاريخية ، وكل ما نقوله يتم تسجيله .. فحافظوا على لغتكم .. »

لأنها ستكون فضيحة لو احتوى هذا السجل التاريخى على أى من الـ F- words كما يقول الأمريكيون ..

التلال تصنع مثلثًا وقمة هذا المثلث هى (هيروشيما) .. المدينة الناعسة التى تتأهب لاستقبال هذا اليوم من أغسطس فى تفاؤل .. صحيح أن الحرب تدور فى كل اليابان لكنهم ظلوا بمنأى عنها .. كانت هيروشيما واحة سلام بعيدًا عن كل شىء .. بالإضافة إلى الستار الكثيف على الحقائق الذى أسدله الإعلام اليابانى ..

وفى الطائرات الثلاث شعر الطيارون بالزهو .. هكذا قالوا فيما بعد .. إنهم يتحكمون فى مصائر الآف الأشخاص .. إنهم يلعبون دور الأقدار .. ضغطة على الزر تغير التاريخ .. وعدم الضغط على الزر يغير كذلك التاريخ ..

الآن يستعد (فيريبى) لضغط الزر ..

كان قد حسب مرارًا شكل القطع الناقص الذى سترسمه القنبلة وهى تهوى ، من ارتفاع عشرة آلاف متر وعلى بعد خمسة كيلومترات من المدينة .. سوف تلامس المدينة بالضبط فى المكان المطلوب ..

ـ « اضرب !! »

وفى طائرة التصوير همس أحد الجالسين وقد نسى الأوامر بتهذيب اللسان :

ـ « انظر إلي تلك القذرة وهى تسقط ! »

والآن حان وقت ارتفاع الطائرة بسرعة كما طلب العلماء .. وإلا صارت أولى ضحايا القنبلة !

دارت الطائرة حول (هيروشيما) والكاميرات تعمل بلا توقف ..

لقد خيم ليل الموت على الجزيرة والسحب السوداء تطبق قبضتها على المدينة البائسة ..

وعلى الرغم منه همس أحد الطيارين بكلمة ظلت محفوظة فى السجلات حتى اليوم وسمعها العالم كله :

ـ « يا إله السماوات ! ما هذا الذى فعلناه ؟!!! »

* * *

فيما بعد كتب أحد التلاميذ اليابانيين للميجور (فيريبى) يسأله :

ـ « ألست نادمًا ؟ »

قال الميجور فى الرسالة التى رد بها :

- « كنت مكلفًا بمهمة استراتيجية وقمت بها على خير وجه .. لاتسألنى هل أحس بتأنيب الضمير أم لا فهذا موضوع يهمنى وحدى .. لكنى أعرف حقيقة واحدة هى أن اليابان طلبت الاستسلام بعد أيام من إسقاط القنبلة ، وقد زرت (هيروشيما) بعد ذلك وتأملت الخراب الذى أحدثته قنبلتى فسيطر على شعور واحد هو أننى قمت بمهمتى على خير وجه ممكن .. »

بعد هذا بثلاثة أيام ارتدى (ليونارد شيشيرى) البريطانى الذى يعمل مع القوات المسلحة الأمريكية بذلة الطيران ، وركب طائرته متجهًا إلى اليابان .. هذه المرة ليكرر مع (كوهورا) ما فعله (فيريبى) مع (هيروشيما) ..

غير أن العواصف فى هذه المرة كانت تحيط بالساحل اليابانى ، وصارت الرؤية شبه مستحيلة .. كانت الرحلة عسيرة بحق ، وفقد كلاً من الطائرات الثلاث المرافقة له ..

هكذا صارت الساعة التاسعة صباحًا وهو عاجز عن معرفة أين هو ولا كيف يصل إلى (كوهورا) ..

يتصل بالقيادة فيؤمر بأن يتجه إلى هدف ثان ..

(ناجازاكى Nagasaki) ..

هكذا نجت مدينةً من الدمار فى اللحظة التى تقرر فيها مصير مدينة أخرى بهذه البساطة ..

لكن (شيشيرى) لم ينس كل هذا الدمار .. وقضى حياته يعانى الاكتئاب ، ثم انغمس فى التدين محاولاً أن يطرد عن نفسه كل الأذى الذى أحدثه هو بغارة جوية واحدة ..



٨ـ الحفـل ..

إنه أغسطس ...

لكنه ليس أغسطس ١٩٤٥ .. إنما هو بعد ذلك بأعوام ..

إنه أغسطس ..

لكنه ليس فى (هيروشيما) .. بل هو فى (نيويـورك) .. بالتحديد فى الحفل الذى نظمه مستشفى (جبل سيناء) فى (نيويورك) ..

الموسيقا تعزف .. هناك الكثير من المراسلين الصحفيين .. أضـواء الفلاش فى كل صوب .. قشدة المجتمـع الأمريكى بأثريائه وبعض ممثلاته الحسناوات .. هناك ضحكات وهناك مصافحات ..

وسط الواقفين ثمة رجل نحيل أصلع يبدو عليه الاكتئاب .. لا ليس (رفعت إسماعيل) ـ اكتفينا مـن هذا العجوز فى (فانتازيا) .. هناك رجل آخر نحيل منكوش الشعر أشـيبه .. وجنرال فارع الطول بادى الصرامة .. هناك رجل نحيل آخر يلبس قبعة ، وهو عصبى كثير الحركة لا يهدأ لحظة ..

ثم جاء صوت المذيع من مكان ما :

ـ « سيداتى وسادتى .. فلنرحب بالرئيس (هارى ترومان Truman) .. الرئيس الثالث والثلاثين للولايات المتحدة .. »

التهبت الأكف بالتصفيق ، بينما تقدم الرجل إلى المنصة وهو يحيى الجميع ..

لا أعتقد أن رئيس الولايات المتحدة يمكن أن يحضر حفلاً فى (نيويورك) .. ولا أعتقد أنهم يعلنون ترتيبه فى كل مرة .. فلربما كان الأمر لا يخلو من شطحات (فانتازيا) .. لكننا سنقبل وجوده على كل حال ..

لكن الحضور بدأ يتفرق من حول (ترومان) .. ثمة جو من الكهرباء العامة ساد المكان ، وتهامس القوم :

ـ « قد جاءوا ! قد جاءوا ! »

واندفع الجميع نحو المدخل ، ورفع الصحفيون آلات التصوير فوق الرءوس كعادتهم .. وراحت أنوار الفلاش تلتمع بلا توقف حين دخل المكان الشاب اليابانى الأول .. كان وسيمًا فارع القامة ـ على عكس ما يقال عن اليابانيين ـ وإن بدا مذهولاً مرتبكًا من كل هذا الزحام .. بعده دخل رجل يابانى أشيب ملتح له عين زجاجية لا تخطئها العين برغم أنها متقنة الصنع ..

بعد دقيقة دخلت فتاتان مرتبكتان .. أنت ترى الفتاة على اليمين .. لا داعى لأن أقسم لك إن هذه (عبير) ذاتها .. نحن نتعامل على أساس الثقة المتبادلة هنا .. هذه هى (عبير) ذاتها أو (متشيكو) لو كنت تفضل هذا الاسم .. إنها بارعة الحسن .. شقراء الشعر .. لم تعد تمت بصلة لتلك الفتاة التى كانتها يومًا ما، ولكن هل تريد رأيى؟ أنا أعتقد أنها كانت أجمل فى صورتها الأولى ..

راحت الأضواء تسقط عليها مع الكثير من الـ (كليك) (كليك) .. وصوب نحو فمها أكثر من مكبر صوت، وسألتها مذيعة شقراء منكوشة الشعر :

ـ « ما هو شعورك بوجهك الجديد ؟ »

ابتلعت (عبير) ريقها وقالت الكلمات الإنجليزية التى قامت بحفظها ألف مرة :

ـ « أنا أشكر رجلى البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلى .. كما أشكر الجراح البارع الأستاذ (بارسكى) على ما قام به .. إن الشعب الأمريكى شعب طيب .. أريجاتزوووووووه ! »

سألها شاب نحيل يملأ النمش وجهه :

- « هل وافق أهلك بسهولة على سفرك إلى الولايات المتحدة ؟ »

ابتسمت وهزت رأسها لأنها لم تفهم .. هنا مالت على أذنها صديقتها اليابانية وترجمت لها ما قيل ، فقالت :

- « لم يعد لى أهل .. »

ساد الصمت المرتبك للحظة ثم سألتها الصحفية الأولى :

- « أهل بلدتك .. هل سروا للأمر ؟ »

- « بالعكس .. كان الاعتقاد السائد أن أمريكا لا يمكن أن تقدم عملاً خيرًا .. لهذا اعتقد الكثيرون أنها ستتظاهر بعلاج ضحايا القنبلة ، لكنها فى الحقيقة ستخطفهم وتتخلص منهم حتى لا يكون هناك شهود .. »

سألها الفتى بسرعة :

- « ورأيك الآن ؟ »

قالت وهى تبتسم بخبث :

- « أنا أشكر رجلى البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلى .. كما أشكر الجراح البارع

الأستاذ (بارسكى) على ما قام به .. إن الشعب الأمريكى شعب طيب .. أريجاتزووووووه ! »

ـ « هل ستعودين إلى (هيروشيما) أم تقيمين فى الولايات ؟ »

هزت رأسها وقالت برقة :

ـ « أنا أشكر رجلى البر والإحسان الأمريكيين (كوزنيس) و(هيزرج) على ما قاما به من أجلى .. كما أشكر الجراح البارع الأستاذ (بارسكى) على ما قام به .. إن الشعب الأمريكى شعب طيب .. أريجاتزووووووه ! »

كان الموجودون كلهم من ضحايا القنبلة الذين حملهم العم (سام) إلى أمريكا ليعالجهم .. إن اسمهم فى اليابان هو (كييو) أى (المشوهون) .. وما حدث بعد الحرب هو أن رجال أعمال أمريكيين جاءوا إلى اليابان ، وتحملوا نفقات سفر وعلاج بعض هؤلاء المشوهين فى الولايات المتحدة على أيدى جراحين بارعين .. بل إنهم تحملوا نفقات سفر جراحين يابانيين إلى الولايات ليتعلموا أسلوبهم فى العمل ..

بالنسبة للعالم كان هذا دليلاً على أن أمريكا تشعر بتأنيب الضمير ..

بالنسبة لهؤلاء اليابانيين فإنهم كانوا يشعرون بأنهم يستعملون كأداة لتحسين صورة أمريكا .. وبالنسبة لهم لم يكن من الممكن نسيان ما حدث .. إن الأمر ينطبق عليه المثل الشعبى المصرى (يخاصمنى فى شارع ويصالحنى فى عطفة) .. بالتأكيد لن تمحو بعض جراحات التجميل تلك الندبة الهائلة التى ستظل فى روح اليابان وجسدها للأبد ..

لكنهم - اليابانيين - لم يكونوا يملكون الخيار .. هذه هى الفرصة الوحيدة التى القيت لهم للعودة إلى الحياة ..

لقد ظلت (عبير) فى المستشفى أسبوعين كاملين بعد الانفجار .. حيث كانوا يغذونها بأنبوب أنفى .. كان الإسهال يقتلها .. وفيما بعد عرفت أن الإسهال من علامات الإشعاع الشهيرة .. لكنها قاومت .. كانت تريد الحياة ..

هناك فى المستشفى عاشت ورأت من المآسى ما يفوق الحصر .. ورأت صفوف الأمهات اللاتى يفتشن عن أطفالهن .. وسط صفوف جثث الأطفال التى لم يعد لها مكان ..

رأت الضحايا الذين سقط شعرهم وقضى الإشعاع على نخاع عظامهم ..

لم يبدأ سرطان الدم لكنه سيعلن عن نفسه بعد أعوام ، ولسوف يحصد آلاف الضحايا ..

أما أشد ما أثار دهشتها فهو أن دم الموتى لايتخثر أبدًا .. يظل النزف مستمرًا مهما طال الوقت ..

لاتعرف متى ولا كيف حملوها على متن طائرة متجهة إلى الولايات المتحدة ، ولا كيف قوبلت فى المطار كأنها ملكة .. ولا كيف مرت بعشر جراحات تجميل .. كل هذا كابوس طويل مرير ..

وفى يوم من تلك الأيام صحت من النوم وتأملت وجهها فى المرآة فرأت وجهًا لايسبب الكوابيس .. لكنه ـ ببساطة ـ ليس وجهها .. لقد رسموا على وجهها المتفحم وجهًا جميلاً زائفًا ..

ومنذ هذه اللحظة صارت نجمة المجتمعات وظهرت صورتها على كل مجلات وصحف العالم تقريبًا .. حتى توقعت أن يتقدم الرئيس (ترومان) لطلب يدها ، أو ربما يصلها سيناريو فيلمها الجديد ..

هى الآن تقف فى هذا الحفل راسمة ضحكة صناعية على شفتيها ، وأسنانها تلتمع كأنه إعلان عن معجون أسنان .. معجون أسنان (هيروشيما) الجديد .. بفضله أنا واثقة من ضحكتى .. أعلى نسبة من اليورانيوم ٢٣٥ بين أنواع معجون الأسنان فى السوق .. يضمن لك تلوثًا إشعاعيًا دائمًا ..

فى ركن القاعة ترى ذلك الرجل ذا الثياب السوداء ، والذى وقف فى ملل يتسلى بالضغط على مؤخرة قلمه الزنبركى .. تك .. تتك .. تك .. تتك .. يمكن أن تفقد عقلك بسهولة ...

- « بعد إذنكم .. أريجاتزوووووووه ! »

وضمت كفيها معًا وحنت رأسها .. ثم انسحبت لتلحق بالمرشد ..

كانا الآن خلف ركن متوار من القاعة ، فثنت ركبتها ووجهت له ضربة قوية جدًا فى ركبته .. حتى إنه تكور حول نفسه يعوى ألمًا وقالت :

- « أنت تتسلى على أيها السافل ! »

- « أنت اخترت هذا يا فتاة .. أوووووه !! أنا لم أختره ! »

قالت وهى تضغط على أسنانها :

- « أنت تتلاعب بالكلمات .. تخفى حقائق كأنك تتسلى بنصب الشراك الخداعية لى .. حين تكلمت عن قصة حب فى اليابان كان هذا آخر ما خطر لى .. »

- « أوووه ! أى ى يى ! تجربة القنبلة الذرية فى (هيروشيما) .. لا شىء مثل (فانتازيا) يتيح لك كهذه فرصة .. »

ـ « أنا آتى لـ (فانتازيا) من أجل الخيال .. وليس من أجل مزيد من الواقع الأليم .. »

قال وهو ينهض والألم لما يفارق وجهه :

ـ « ليكن .. ليكن .. لم تنته القصة بعد .. لكنى ألفت نظرك إلى أن هذا الحفل لا يوجد إلا فى (فانتازيا) .. »

ـ « إننى أموت بهجة .. »

قال وهو يشير إلى الواقفين :

ـ « مثلاً لن تجدى حفلاً اجتمع فيه الرئيس الأمريكى (ترومان) صاحب قرار إلقاء القنبلتين ، و(أينشتاين) و(إنريكو فيرمى) و(زيلارد) و(أوبنهايمر) وكل الطيارين الذين ألقوا القنبلة .. هذه من الأشياء التى تمنحها لك (فانتازيا) على سبيل الـ Cadeau .. »

ضحكت فى مرارة وقالت :

ـ « أحرقت وجهى بالكامل وتتحدث عن الهدايا ؟ لقد خضت عشر جراحات تجميل كى تستطيع أن ترانى دون أن تصرخ .. »

فجأة سمعوا صوت صراخ .. تصلب الناس .. ومن أماكن ـ لا تعرف أين كانت ـ برز حرس خاص للرئيس يحملون

مسدساتهم .. لم تكن السماعات فى الأذن موجودة فى هذا الزمن ، لكنهم استعاضوا عنها بالمزيد من التوتر ..

هناك شخص ما يقاوم فى المنتصف .. هناك لكمات تطير فى الهواء .. هناك من يركل ومن يصفع .. وفى النهاية تراجعت الدائرة قليلاً لتكشف عن شاب أمريكى يرقد على الأرض ، وقد قيدت يداه إلى الخلف ، وهو يتلوى ككلب عقور ولا يكف عن الصراخ .. فلو أنه وجد ساقها فى طريقه لعضها .. لكن ثلاثة حراس جثموا عليه كالجلاميد ..

كان يردد فى هستيريا :

- « لا تجذب الرافعة ! لا تجذب الرافعة ! »

نظر المرشد إلى الوراء فى أسى ، وهزّ رأسه قائلاً :

- « لا مشكلة .. هذا بطل حرب كان المفترض أن يكرمه الرئيس (ترومان) اليوم .. »

الآن هم يجرون الشاب إلى الخارج فتسأل المرشد ، بينما الحفل يعود إلى مرحه السابق :

- « قل لى .. ألا ترى أن هذه طريقة غريبة بعض الشىء لمعاملة بطل حرب ؟ »

قال فى لا مبالاة :

ـ « ماذا يمكن عمله وقد جن تقريبًا ؟ إن الميجور (كلاودى) الشهير بقسوته وحبه للتدمير كان قائد سرب منذ كان فى الحادية والعشرون من عمره .. كان باردًا صلب الأعصاب حتى أطلق عليه أصدقاؤه اسم (وجه البوكر Poker face) .. أنت تعرفين أن لاعب البوكر يجب أن يبدو باردًا لا يستطيع اللاعبون معه أن يخمنوا إن كان يكسب أم ... »

ـ « اختصر .. اختصر .. لست بهذا الغباء .. »

ـ « ثم رشح كى يكون فى طائرتى القنبلة الذرية .. على (هيروشيما) وعلى (ناجازاكى) معًا .. وكان مسرورًا مما حقق .. لكنه إذ عاد إلى وطنه (تكساس) بدا صموتًا أميل إلى الاكتئاب .. وقد أقامت له بلدته حفل تكريم .. وفى وسط الحفل اختفى قبل أن يلقى خطبته .. بحثوا عنه كثيرًا جدًا حتى وجدوه فى النهاية نائمًا على ظهره فى مخزن قش ، وهو يبكى بحرقة ..

« بعد هذا تزوج لكن زوجته شعرت بالذعر منه وطلبت الطلاق .. كان يصرخ طيلة نومه : لا تجذب الرافعة ! لا تجذب الرافعة ! إن الأطفال يحترقون ! وكان ينهض فى

منتصف الليل ليقول إنهم يريدونه فى (هيروشيما) ليحقق فيما أحدثته القنبلة من دمار .. نالت الزوجة الطلاق بينما ظلت حالته العقلية تتدهور .. فصل من القوات المسلحة ومنح معاشًا سخيًا .. لكنه لم يلمسه قط .. فضل أن يسرق المتاجر بينما حسابه فى المصرف يتضخم .. كان يعتبر أن هذا المعاش هو ثمن أرواح أطفال (هيروشيما) و(ناجازاكى) .. وقرر أنه لن يلمسه أبدًا ، وقد حاولت الحكومة الأمريكية أن تتجاهله وترفق به قدر الإمكان حتى لاتسبب فضيحة .. لكن الحقائق تغلبت أخيرًا .. هكذا تحول بطل الطيران إلى لص عادى يلاحقه رجال الشرطة فى كل مكان .. »

قالت فى تشف :

ـ « هذا هو ثأر (هيروشيما) .. لكنى ـ بشكل ما ـ أجد أن هذا الرجل أشرف ممن أرسلوه ليحرق أطفالنا .. لقد عذبونا كثيرًا جدًا .. أكثر مما يتصور عقل .. »

قال وهو يبتعد مسرعًا :

ـ « لكن كيف حالك الآن ؟ لقد انتهت المعاناة وبدأ المرح .. سلام !! »

ومن جديد وجدت أنها تقف وحدها وسط الجمع .. وقررت أن تجد (أينشتاين) لتتكلم معه ..

★ ★ ★

٩ ـ من فعلها ..

كان الرجل العظيم واقفًا يحاول أن يحصى النقود التى معه .. وكان يعانى معاناة شديدة فى العد كما هو واضح .. من العسير ألا تراه بشعره الأشيب المنكوش الذى يجعل رأسه عملاقًا ، والغليون فى فمه ، وثيابه غير المهندمة .. دعك من عينيه الواسعتين المندهشتين اللتين لم يجد فنان المؤثرات الخاصة (رامبالدى Rambaldi) خيرًا منهما لتكونا عينى كائن الفضاء البرىء المندهش المذعور ET ..

دنت منه فكف عن العد ، ووقف ينظر لها ..

قالت له ـ لقد صارت تجيد الإنجليزية تمامًا الآن ـ فى عتاب :

ـ « لماذا فعلت ذلك يا بروفيسور (أينشتاين) ؟ »

قال لها مرتبكًا :

ـ « لو كنت تتحدثين عن القنبلة الذرية فلا ذنب لى فى هذا الموضوع كله .. إن رجل الشارع يعتقد أننى مخترعها ، لكن الحقيقة هى أنه لا دخل لى بهذه القصة أصلاً .. كل ما حدث أننا كنا جميعًا من العلماء اليهود الذين هربوا من النازية

وجاءوا إلى الولايات المتحدة .. كنا نرتجف هلعًا من فكرة أن يلتهم (هتلر) أوروبا ويجيء إلى أمريكا .. وكان (زيلارد Szilard) العالم المجرى يحمل كابوسًا مقيمًا .. كان يعتقد أن (هتلر) سيتوصل إلى القنبلة الذرية وبها سيحكم العالم .. لهذا حاول إقناع الأمريكان بخطورة الأمر : لو كانت القنبلة الذرية ممكنة ـ وهى كذلك ـ فلابد أن تكون أمريكية .. وقابل الكثيرين من المسئولين دون جدوى .. ثم جاءنى وشرح لى نظرياته التى بدت لى ممكنة ومنطقية .. هكذا كان دورى هو أن كتبت إلى الرئيس (روزفلت Roosevelt) أزكى الفكرة .. وبالطبع أعطى اسمى للخطاب ثقلاً خاصًا مما جعله يتبنى المشروع .. لكنه لم يعش ليرى تنفيذه .. »

ـ « إذن أنت نقى الضمير من هذه التهمة ؟ »

نظر لها بعينيه الواسعتين الصادقتين ، وقال :

ـ « طبعًا هناك ليال أبكى فيها ، ومازلت أشعر بالارتباك والذنب حين أقابل أحد اليابانيين مثلك .. ولم أكف لحظة عن الدعوة إلى وقف التجارب النووية ، لكنى أقولها مستريحًا : لا دخل لى فى هذا المشروع .. ولو كنت ممن صمموا القنبلة لقتلنى الهم .. »

وابتسم فى مرارة وقال :

- « حين عرفت بمدى ما أحدثته القنبلة من دمار قلت : ليتنى كنت سمكريًا أو صانع أقفال بدلاً من عالم طبيعة .. الطريف أن نقابة صانعى الأقفال فى (نيويورك) شعرت بالفخر من مقولتى هذه ، وضمتنى عضوًا فخريًا إليها .. »

لم تبتسم (عبير) وهمست وهى تبتعد :

- « إذن يجب أن أرى (زيلارد) .. »

★ ★ ★

كان (زيلارد) هو ذلك الرجل النحيل الأصلع حزين النظرات ، وكان يقف مع امرأة مجرية يتحدثان حين دنت منه (عبير) .. وبهدوء سألته :

- « دكتور (زيلارد) .. لماذا فعلت ذلك ؟ »

أخرج منديلاً وجفف العرق على جبينه وقال :

- « القنبلة ؟ لاحظى أننى لم أتخذ قرار إلقائها بل فعلت ما بوسعى كى أمنع هذا .. إلى حد أن المخابرات الحربية الأمريكية اعتبرتنى خطرًا على الأمن .. »

- « لكنك صنعتها .. »

ـ « قدمت أهم النظريات التى قادت لصنعها .. كان معى زميل عظيم هو (فيرمى Enrico Fermi) الذى طور معى أول تفاعل متسلسل فى المختبر عام ١٩٤٢ إن فريق الباحثين فى (شيكاغو) قد قدم أهم النظريات التى تطلبها صنع القنبلة ، لكنى أكرر : لم أقبل قط فكرة استعمالها .. »

قالت فى غيظ :

ـ « لكنك صنعتها .. »

ـ « كنت خائفًا من (هتلر) .. كلنا كنا كذلك .. وكنت مؤمنًا أن الألمان قاب قوسين أو أدنى من اكتشاف هذه القنبلة ؛ لذا سعيت فى لهفة إلى أن تمتلكها الولايات المتحدة .. وقد اقترحت أن تظل معنا لقهر (هتلر) لو فكر فى استعمالها ضدنا .. ثم انتحر (هتلر) وخرجت ألمانيا من الحرب .. ظلت اليابان هى عدونا الوحيد ، لذا اقترحت أن يتم إلقاء القنبلة فوق جبل (فوجى ياما) حيث لا بشر .. إن الرسالة سوف تصل إلى اليابانيين كاملة لكن من دون أن تموت قطة .. اقترحت كذلك أن يتم إخطار اليابانيين بموعد تفجيرها فى جزيرة نائية بالمحيط الهادى ، حتى يروا بأنفسهم ما يمكن أن يحدث لهم .. لكن لم يصغ لى أحد .. واعتبرنى الجيش الأمريكى عميلاً

أو مخربًا ، حتى إنهم كانوا يراقبون الذباب الذى يطير حولى .. وكنت أعيش فى بناية لا يمنعها من الانهيار إلا كثرة أسلاك أجهزة التنصت فيها .. هذه الأسلاك كانت تؤدى نفس عمل أسياخ الحديد .. »

نظرت له مفكرة .. إذن هذا برىء آخر .. على الأرجح سيتضح أنها المسئولة عن قنبلة (هيروشيما) .. هى وحدها ..

سألته فى برود :

ـ « إذن هناك من صنع القنبلة إذا سمحت لى .. إنها لم توجد نفسها منذ الأزل .. »

أشار إلى نهاية القاعة إلى حيث كان ذلك الرجل النحيل كثير الحركة ذى القبعة ، يقف مع الجنرال الصارم الذى يحلق شعره بتلك الطريقة العسكرية القصيرة التى يطلقون عليها Crew Cut (قصة الفلاحين) ..

هذا هو (أوبنهايمر Oppenheimer) مع الجنرال (جرو) .. باختصار هذان هما الأخوان (قنبلة) .. »

دون أن تتكلم فارقته كالمسحورة متجهة نحو قاتليها ..

نظر لها الجنرال بكراهية .. بعد كل هذه السنين هو لا يتحمل

اليابانيين ، ويطلق عليهم باحتقار لفظ japs وهو لفظ يبدو لنا بريئاً لكن فيه رائحة ازدراء لا يفهمها سوى الأمريكيين ..

حيتهما فى فتور ، وسألت الرجل النحيل الذى هو (أوبنهايمر) :

ـ « لماذا فعلت ذلك يا د. (أوبنهايمر) ؟ »

قال لها بارتباك وهو ينزع قبعته :

ـ « القنبلة ؟ حسن .. لقد بدأت من حيث بدأ (زيلارد) .. كنت أخاف أن يسبقنا (هتلر) إليها .. »

ـ « لكن (هتلر) مات وتراجع (زيلارد) .. »

ـ « عندها كان علينا أن نثبت أننا لم نصنعها لأننا نكره (هتلر) بل لأننا نحب أمريكا .. أنت تعرفين أن أكثر من صنعوا القنبلة ـ بمن فيهم أنا ـ علماء يهود .. كنا نكره (هتلر) كالطاعون .. وفى هذه النقطة اتفقنا مع الحكومة الأمريكية ، فلما مات (هتلر) راح (زيلارد) ينادى بأن نوقف مشروع القنبلة ، لكن كان على أن أثبت أننا نصنعها لمصلحة أمريكا وليس بسبب كراهيتنا الشخصية لـ (هتلر) .. صار من الواجب علينا أن نصنعها ونجربها وأن تنجح .. »

ثم تبادل نظرة فخورًا مع الجنرال وأردف :

ـ « صرت مكلفًا بمشروع (مانهاتن) ـ الذى هو صنع القنبلة ـ وقد قمت بتكوين فريق عمل .. وقد أعجب الجنرال بطريقتى المنظمة شبه العسكرية فى تنفيذ الأوامر .. وبنينا مدينة سرية فى (لوس ألاموس) وسط الصحراء .. هناك واصلنا أبحاثنا حتى نجحت .. »

قال الجنرال فى صرامة :

ـ « كنت أنا المشرف على الجانب العسكرى .. لم أشعر قط براحة مع كل هؤلاء العلماء باستثناء (أوبنهايمر) .. كنت أعتبر أننا نستضيف أكبر مجموعة مخابيل عرفتهم أمريكا .. لكن هؤلاء المخابيل استطاعوا أن يصنعوا القنبلة من فكرة وهمية .. لو استطاعوا أن يفجروا قنبلة إلى الداخل بدلاً من الخارج لبدأ التفاعل المتسلسل .. تصورى هذا السخف .. »

قال (أوبنهايمر) وعيناه تدمعان تأثرًا :

ـ « أجرينا أول بروفة للانفجار .. رأينا كيف ساد الصمت ، ثم تعالى الوميض المرعب .. بعدها ارتفعت سحابة عش الغراب تعلن بداية العصر النووى .. عندها قال الجنرال يصف المشهد .. هل تذكر يا جنرال ما قلته ؟ »

ـ « إنها أكثر سطوعًا من ألف شمس .. الآن فقط انتهت الحرب .. »

ـ « وقلت أنا بعد انتهاء الانفجار : أنا قد صرت الموت .. مدمر العالم .. إنها صلاة هندية قديمة .. هل تعرفينها ؟ لحظتها قال لى صديقى الذى كان يراقب المشهد : لقد صرنا جميعًا أولاد (.....) من هذه اللحظة .. »

قالت (عبير) فى غيظ وهى تتحسس وجهها :

ـ « هذه ذكريات مؤثرة للغاية .. لكن ألم تتخيل لحظة ما يمكن أن يحدث لبشرى يقف فى قلب هذا الانفجار ؟ هل فكرت كيف يمكن أن تؤثر هذه الألف شمس فى أطفال المدارس ؟ »

فى صرامة قال الجنرال وهو يدفعها بيده :

ـ « اسمعى يا فتاة .. رأيك لا يهمنى .. هذه القنبلة قد هشمت إرادة اليابان التى لا تتهشم .. وقد وفرت علينا حياة مليون جندى أمريكى على الأقل .. لقد أنهت الحرب ، لهذا أعتبرها أعظم عمل سلمى فى التاريخ ! »

ثم اتجهت عصبيته نحو (أوبنهايمر) فقال وهو ينقر بإصبعه على صدره فى ازدراء :

ـ « حتى هذا المتخاذل ليس صافى النية إلى هذا الحد .. إنه يبذل ما بوسعه كى يعرقل مشروع إنتاج القنبلة الهيدروجينية التى تعتبر قنبلة (هيروشيما) بالنسبة لها نوعًا من مفرقعات الأطفال .. »

قال (أوبنهايمر) وقد بدا أن الوخز يؤلمه :

ـ « لقد انتهت الحرب يا جنرال .. لا جدوى من صنع قنبلة أكبر وأخطر لأن القنبلة الذرية لن تستعمل ثانية .. لا جدوى من أن تستعمل ثانية خاصة والسوفييت يعرفون الآن طريقة صنعها .. بل صنعوها فعلاً .. »

فى ازدراء قال الجنرال :

ـ « أصدقاؤك السوفييت ! هل تجهل أن الكلام قد كثر من حولك بصدد وطنيتك وولائك للولايات المتحدة ؟ هل تجهل أن الكثيرين يطالبون بإيقافك عن العمل ؟ يقولون إن لك ميولاً شيوعية واضحة وإنك قد تبيع سر القنبلة الهيدروجينية للسوفيت متى صنعناها ؟ »

قال (أوبنهايمر) مدافعًا عن نفسه وقد تحشرج صوته بالبكاء :

ـ « كنت أميل إلى الشيوعية فى شبابى .. لكن هذا انتهى

منذ زمن .. ثمة مقولة شهيرة تقول : من لم يمل إلى الشيوعية فى العشرين فلاقلب له .. ومن مال إلى الشيوعية فى الأربعين فلا عقل له !! »

- « تهمة الشيوعية تكفى لتلويثك إلى الأبد .. »

كانت (عبير) تفهم جيدًا هذه المواقف .. أنت معنا وإلا فأنت ضدنا .. (أوبنهايمر) لايريد أن يصنع القنبلة الهيدروجينية فقد اكتفى من الألم البشرى ورؤية الجثث المحترقة .. عندئذ يتهمونه بعدم الولاء لأمريكا ..

انسحبت مبتعدة بينما الجدل دائر بين الرجلين .. سوف يظل (أوبنهايمر) مهددًا تحوم حوله علامات الاستفهام حتى آخر يوم من حياته ..

وكان الرئيس (ترومان) يقف مع إحدى الصحفيات ..

دنت منه وهزت رأسها ، فأشرق وجهه واصلح من عويناته وهتف بطريقة دبلوماسية سريعة :

- « جميل .. جميل .. أنت إذن اليابانية التى استعادت جمالها بفضل جراحى أمريكا ؟ »

ابتسمت وقالت بتهكم :

- « لم أستعده .. أعطونى جمالاً آخر !! »

وتذكرت - بصفتها (عبير) - أغنية قديمة لـ (عدوية) تقول : « شوفلى جمال .. على قد الحال .. يعوض صبرى إللى طال .. » .. كأن (عدوية) كان يرثى حالها .. الحقيقة أنها كانت تحب أغانيه لكنها لم تعترف لنفسها بذلك قط ..

ثم بلهجة لا تخلو من الكياسة سألته :

- « سيدى .. لم أصدرت أوامرك بإلقاء القنبلة ؟ »

طلب من الصحفية أن تبتعد ، ثم نظر إلى (عبير) مليًا وقال :

- « سأكون صريحًا معك يا آنسة ؟ »

- « (متشيكو زاكو) .. »

- « (متشيكو) .. كل اسم من أسمائكم اليابانية هذه يبدو كأنه مصطلح من مصطلحات (الكاراتى) .. سأكون صريحًا معك .. لقد كان بلدك موشكًا على الاستسلام وكانت هناك مفاوضات سرية تتم من وراء الستار .. أعتقد أن الحرب كانت موشكة على الانتهاء .. »

- « أى أن خطر فقد مليون جندى أمريكى فى أثناء غزو اليابان أكذوبة ؟ »

ضحك كثيرًا حتى دمعت عيناه وقال :

ـ « بالطبع لكننا لا نطلق على هذا أكذوبة .. نطلق عليه (دعاية إستراتيجية) .. جنرال (إيزنهاور) قائد العمليات قال فى أكثر من تصريح صحفى إن هذا رقم مبالغ فيه .. »

اتسعت عيناها ذهولاً .. لم تصدق ما تسمعه :

ـ « وبرغم هذا .. برغم هذا ألقيتم القنبلة ؟ »

قال وهو يجفف قطرات العرق التى نمت على جبينه :

ـ « أنت لا تفهمين .. لقد كلفتنا القنبلة الكثير من الجهد والوقت والمال وكان لابد أن تنفجر .. لابد من تجربتها على بشر .. كان هذا أقوى منا .. ثم إن الأمريكيين كانوا متعطشين إلى الدم اليابانى بعد هزيمة (بيرل هاربور) ولم يكن من حقى أن أحرمهم هذه المتعة .. بالإضافة إلى أن القنبلة كانت الرسالة الأخيرة لعالم ما بعد الحرب .. هناك قوة كاسحة شديدة البطش اسمها الولايات المتحدة .. فلتتراجع الضباع إلى جحورها .. الضباع العجوز التى ولى عهدها مثل (إنجلترا) و(فرنسا) .. والضباع الشابة التى تحاول أن تستأسد مثل الاتحاد السوفييتى .. لقد كانت القنبلة بمثابة الإعلان عن ميلاد إمبراطورية جديدة .. »

جف ريقها وشعرت بأنها تتكلم بصعوبة بالغة :

ـ « و.. وكيف استقبلت خبر سقوط القنبلة ؟ »

ـ « كنت وسط مجموعة من البحارة حين وجدت البرقية في يدى ، فصحت : لقد ألقينا أول قنبلة ذرية على اليابان .. يا أولاد .. أنتم عائدون إلى الوطن ! هكذا ساد المرح وتطايرت القبعات فى الهواء ! »

ثم راح يفكر فى شرود :

ـ « كان على أن أرتب عالم ما بعد الحرب .. غزو (كوريا) .. مشروع (مارشال) .. لقد وضعت أولى اللبنات فى صرح .. ولكن .. أين أنت ؟ »

لأن (عبير) كانت قد تركته يتكلم وابتعدت ...

★ ★ ★

الجزء الرابع

المكلومون

« اليابانيون أسعد حظًا لأنهم خسروا الحرب .. فالنصر في ميدان كهذا هو درس قاس .. »

(أينشتاين)

★ ★ ★

١٠- والحياة تستمر..

إنه أغسطس ..

واسمها (متشيكو زاكو) ..

لم تعد رقيقة دقيقة أنيقة كالزهرة .. لقد تقدمت فى السن لكنك تستطيع أن تقول باطمئنان إنها كانت جميلة يومًا ما ..

لم تعد لها غمازتان لأنهما تلاشيتا تحت طبقات مزرعة الجلد أولاً ، ولأنها لم تعد تضحك ..

مدرسة أطفال هى ..

خير مدرسات الأطفال هى من تملك كل صفات الطفولة ، وقد كانت طفلة عجوزًا ، لهذا كانوا ينادونها بلا تحفظ (متشيكو) ..

تمشى فى الشارع متجهة إلى المدرسة .. بائع البطيخ الشاب الذى وقف يرص شرائحه الحمراء التى يكفى مرآها ليطفئ ظمأك يصيح من بعيد :

- « صباح الخير يا سيدة (متشيكو) .. »

ثم يتذكر خطأه فيصحح كلماته :

- « يا آنسة (متشيكو) .. »

إنه يعرفها .. يقولون إنها كانت من ضحايا القنبلة ، وإنها تلقت علاجًا كثيفًا فى الولايات المتحدة ، لكن هذا كان منذ عشرين عامًا .. لا أحد يتكلم عن هذه الأمور ..

وبائعة الزلابية العجوز الكفيفة التى احترق نصف وجهها تصيح فيها :

- « هل تذوقين الزلابية يا (متشيكو) ؟ »

- « لم تعد صحتى تسمح بهذا يا (كوتيكو) .. »

وتواصل السير .. إن خطواتها ثقيلة رصينة متأملة كأنها خطوات راهب بوذى يخرج من منسكه فى (الهيمالايا Himalaya) ليتأكد من أن العالم مازال كما هو ولم يختف ..

لقد تغيرت (هيروشيما) بالكامل .. مدينة أخرى حديثة هى .. وقد امتلأت بالسياح الذين لا يكفون عن تصوير كل شىء فى نهم ..

منذ أغسطس ١٩٤٥ واسم (هيروشيما) قد خلد فى تاريخ البشرية ، إلى جوار أسماء البلدان المنكوبة الأخرى

مثل (جيرونيكا) و(وارسو) و(ناجازاكى) .. درجة النكبة تختلف لكن يمكن القول باطمئنان إن (هيروشيما) كانت الأسوأ حظًا ..

وتدخل إلى المدرسة حيث الأطفال يجلسون على الأرض إلى تلك المنضدة الطويلة التى وضعت عليها عدة مزهريات .. أمامهم ألواح كتابة وقصص أطفال متناثرة هنا وهناك .. وعلى الجدار صورة صغيرة للإمبراطور ..

قالت لهم وهى تجلس على الأرض فى الوضع المنتصب اليابانى الشهير :

ـ « اليوم سأخبركم عن أجمل شىء فى العالم .. »

ـ « ما هو يا (متشيكو) ؟ »

ـ « خمنوا .. »

قالت طفلة حسناء دقيقة :

ـ « الأرانب البيضاء .. »

ـ « لا .. هناك ما هو أجمل .. »

قال طفل (ملظلظ) بشدة :

ـ « أطباق الأرز .. »

ـ « لا .. »

طفل ثالث :

ـ « بيت الجدة .. »

ـ « لا .. »

ـ « إذن ما هو يا (متشيكو) ؟ »

قالت وهى تنظر إلى العالم حيث بدا من النافذة :

ـ « إنه .. إنه السلام .. »

★ ★ ★

لشد ما تغيرت (هيروشيما) ..

لم يعد مصرف (زديوتومو) ولا مبنى (فوكوزايماى) موجودين .. لم تعد هناك إدارة غاز ..

اليوم تجد فى المكان ذاته حديقة شاسعة فيها نصب تذكارى ، اسمها (حديقة الحرية) .. هناك مبنى تعليمى فاخر عملاق اسمه (معهد الذرة) .. مستشفى كبير هو مستشفى (زيما) ..

لا توجد آثار تخبرك بموضع سقوط القنبلة ، لكنك تستطيع

أن ترى ظل الحارس الذى انطبع على الأسفلت لحظة سقوط القنبلة .. وظل من يومها هناك .. ترى فيم كان يفكر فى تلك اللحظة ؟

كانت تمشى هناك كل يوم .شاعرة بأنها لا تنتمى لشىء ..

عالمها القديم توارى .. الآن المسرح يعد لعالم جديد .. يشبه الأمر ما يحدث فى المطاعم حين تفرغ من وجبتك ، فتبدأ إجراءات إعداد المنضدة لزبون جديد لم يأكل بعد .. أنت جالس والنادل يحوم حولك .. يتصرف بتهذيب لكنه لا يكف فى كل لحظة عن التخلص من آثارك .. عن إعداد المكان لمن يأتى بعدك .. يرفع الطبق الأخير .. يمسح المنضدة .. يفرغ منفضة التبغ .. يصلح من وضع المقاعد .. أنت نلت فرصتك كاملة وقد انتهى دورك .. حان وقت الرحيل يا سيد .. أرجو أن نكون قد رقنا لك .. و(عبير) لا تعرف كيف تقول ، إنها لم تحب المطعم ، وإنها لم تشعر لحظة بأنها نالت ما تستحق فيه ، وإن الطبق الأساسى كان ساخنًا ملتهبًا أكثر من اللازم حتى شوهها بالكامل ..

فجأة رأت ذلك الرجل ..

إنها تعرفه .. رجل يابانى أشيب له عين من زجاج .. لقد قابلته فى ذلك الحفل الذى ضم (أوبنهايمر) و(ترومان) ..

هو مثلها من (الكييو) وقد فعلت الولايات المتحدة ما تستطيع كى تعيد له شكله الآدمى ، لكن العيون لا تباع فى محلات البقالة .. « تلك أشياء لا تشترى » .. قالها الشاعر العظيم (أمل دنقل) بعد هذا اليوم بعقد من الزمن تقريبًا ..

الرجل يمر جوار سور (معهد الذرة) ..

يرمق الحديقة فى افتتان .. يتنهد ..

إنه أغسطس .. كان هناك أغسطس مماثل فى الجمال منذ عدة أعوام .. يبدو أن جمال الفصول دورى ..

فجأة رأته ينظر فى حذر من حوله .. ثم إنه راح يتسلق السور الحديدى بخفة لا تناسب سنه ..

يركض وسط الورود .. يتعثر .. ينهض .. يسعل .. ينهض ..

فى النهاية وقف وفى يده شىء يختلج .. يرمقه فى حنين واضح بعينه الوحيدة السالمة ..

إنه يبكى ..

وبدورها انفجرت فى البكاء ...

يستوقفه الحارس ويعتصر ذراعه فى قسوة :

ـ « أنت تتعدى على أملاك الدولة أيها السيد المحترم .. أى أنك تتعدى على أرض الإمبراطور ! »

قال الكهل وهو يحاول التملص :

ـ « إنها فراشة أيها الحارس المحترم .. فراشة لا أكثر .. لست لصًا ولا سفاحًا .. »

أطلق سراحه وهو يغمغم :

ـ « نعم .. نعم .. أعرف أنك كنت من ضحايا ذلك اليوم .. من حقك أن تنعم بفراشة .. فلا أحد يملك الفراش .. »

ويخرج الرجل من الحديقة وهو مازال يحملق فى الفراشة ..

تستوقفه هاتفة :

ـ « معذرة .. لكن لماذا فعلت ذلك ؟ »

نظر لها طويلاً فى حيرة ثم غمغم :

- « قبل القنبلة بأيام رأيت ذات الفراشة الغريبة جدًا فى حديقة مصرف (زديوتومو) ، وأهديتها لحبيبتى .. »

- « وبعدها ؟ »

- « أحسبها ماتت .. أحسبنى مت أنا كذلك .. »

نظرت له طويلاً وراحت شفتها السفلى ترتجف :

- « أنت .. أنت (توشيو) ! »

هنا فقط بدأ يفهم ما هنالك .. إنها تبدلت كثيرًا جدًا لكن روحها تطل من عينيها .. روح لها ضفيرة طويلة وغمازتان .. لا أعرف كيف ..

- « أنت (متشيكو) ؟! »

- « يا لك من أحمق ! »

★ ★ ★

إنه أغسطس ...

وحكايا الحب لا تنتهى حيث وقفا هنالك جوار معهد الذرة يبكيان لا تفترق عيناهما .. الفراشة فى يدها ترفرف برفق وقد نسيت كل شىء عن العالم ..

قال لها وهو يرتجف :

ـ « رأيتك مرارًا فى الولايات المتحدة ولم أتصور لحظة أنك ذات الفتاة التى أحببتها .. إن اسم (متشيكو) شائع .. وقد كان الأمريكان يعزلوننا عن بعضنا كفئران التجارب .. لم نتبادل حديثًا منفردًا مرة واحدة .. »

ـ « وأنا رأيتك مرارًا ولم أتصور أنك هو أنت .. »

ـ « لم نعد نملك ذات الوجهين ، وربما لا نملك ذات الروحين .. »

ونظرت إلى الأفق حيث يلهو بعض الأطفال ، وهم يعرفون يقينًا أنه لن تهوى عليهم قنبلة نووية :

ـ « وجدت جثة محترقة يبدو أنها كانت ترتدى عوينات مذهبة الأطراف .. »

ـ « كل اليابانيين فى تلك الأيام كانوا يضعون العوينات مذهبة الأطراف .. كانت هذه الموضة وقتها .. »

وأردف وهو ينظر لبعيد :

ـ « لقد خرجت لعملى فى ذلك الصباح ، وأغلقت باب البيت .. وفجأة وجدت الوهج والنيران وفى لحظة لم يعد لدى وجه ..

وأدركت أننى فقدت عينى اليمنى .. هناك قطعة خشب اخترقتها أثناء العاصفة التى هبت بعد القنبلة .. هكذا مشيت أترنح وأصطدم بالناس حتى وجدت جنديًا يجرنى جرًا إلى النهر .. فقدت وعيى فى قارب وأفقت فى المستشفى .. بعدها جاء رجال البر والإحسان الأمريكيون يبحثون عن ضحايا .. وقد وقع الاختيار على .. »

ثم ابتسم بمرارة ..

ـ « لا أعرف شيئًا عن أهلى .. »

صمتت للحظة ثم همست فى حزن :

ـ « (هيروكو) ماتت .. من حقك أن تعرف هذا .. »

نظر لها للحظة والتمعت دمعة فى عينه السليمة ثم همس :

ـ « هل تعذبت كثيرًا ؟ »

هنا يأتى دور الكذب .. أحيانًا يكون مفيدًا :

ـ « لا .. لقد ماتت لحظة سقوط القنبلة .. لم تعرف ما حدث قط .. »

بدا عليه سرور يثير الشفقة .. كأنه من الطبيعى جدًا أن يموت الأطفال محترقين .. فقط لنأمل ألا يكونوا تعذبوا ..

قالت له بصوت مبحوح وقد عادت ذكرى اليوم الرهيب إليها حية ..

- « لقد انتهت آلامك .. »

ثم فطنت إلى أنه يوارى أنفه بين كفيه .. حسبته يبكى بحرقة ، ثم فطنت إلى أن الدم يلوث راحتيه ..

- « ماذا دهاك ؟ »

أخرج منديلاً وراح يمسح به الدم :

- « سرطان الدم .. إن مخالب الشيطان لا تتخلى عنك بهذه السهولة .. »

- « سرطان دم بعد كل هذه الأعوام ؟ »

- « ماذا تظنين ؟ هذا هو الوقت المناسب كى يكون التلوث الإشعاعى قد فرغ من مهمته الشاقة الشيطانية .. هناك خمسون ألفًا ينتظرون الموت بسرطان الدم أو النخاع خلال الأعوام القادمة .. إننى أتلقى العلاج الكيماوى فى مستشفى (زيما) .. لم أمر من هنا مصادفة .. »

مدت يدها برفق وتحسست وجهه .. خيط الدم مازال ينزف من منخره ، فمسحته برفق وقالت :

- « لن أتخلى عنك هذه المرة .. سأكون معك فى كل خطوة تخطوها .. »

ثم همست :

- « لقد جاءت القنبلة لتسلبنا حياة كانت من حقنا .. كنا فى عمر الأزهار حين تحولنا إلى معوقين ، نقضى بقية حياتنا على منضدة الجراحة وفى عيادات الكيماوى .. لكنها لن تسلبنا روحينا .. »

وفى هذه اللحظة تذكرت شيئاً ما ..

فتحت كفها .. فحلقت الفراشة فى الهواء .. دارت دورة حولهما كأنما تشكرهما ثم ابتعدت ..

هنا فقط انفجرا يضحكان ..

القنبلة قد تحرق كل خلاياك لكنها لن تحرق روحك أبدًا .. هذا هو ما تعلماه الآن ..

* * *

إنه أغسطس ...

لكن المرشد يظهر فـى أغسـطس كمـا يظهـر الذبـاب والبعوض .. وقد جاءهما من بعيد وقد بدا عليه أنه يستمتع بهذا كله .. قال لها :

- « حان الوقت يا فتاة .. هذه النهاية لا بأس بها .. »

نظرت له في غل وقالت :

- « تتركنى أحترق فى هذا الأتون .. ثم تظهر فى اللحظة التى توشك فيها قصة حب أن تنضج .. »

- « لابد من العودة .. لـن تبقـى هنـا للأبد .. فقط أنت تعرفين أن (متشيكو) ستبقى مع (توشيو) حتى يموت .. وصدقينى لن تحبى هذا المشهد كثيرًا .. »

كـان الحـافز قويًا .. نعم هـى لـن تتحمـل المزيـد مـن المصائب ..

نظرت لـ (توشيو) نظرة طويلة ذات معنـى ، ثم ابتعدت مع المرشد ..

* * *

فى القصة القادمة تعيش (عبير) عالمًا شديد التعقيد ، لا يمكنك فيه أن تلتهـم البـرتقـالـة قبل أن تعـرف مـا هو

البرتقال ؟ هل هو وهم ؟ هل نتخيل أننا نتذوقـه ؟ ما جدوى أن تأكل أصلاً ؟ أليس من الأفضل أن تترك البرتقالـة تعيش حياة طبيعية بدلاً من أن تنتهى داخلك ؟

الخلاصة إنـه عالم لا يناسب ذوى الضغط المرتفـع أو مرضى المرارة ..



تمت بحمد الله

المصادر

* Rober Jungh : Brighter Than a Thousand Suns. Harcourt, 1970.

* فرناند جيجون : إنــى عائد من هيروشيما .. ترجمـة جمال جمعة .. من الشرق والغرب (٢٠٨).
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .. ١٩٦٧.

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

حب فى أغسطس


د. أحمد خالد توفيق

هناك قصص حب فى كل فصول السنة .. لكننا اليوم نحكى لك عن قصة حب فى (أغسطس) .. فى عالم قرر كل ما فيه أن يكون قبيحًا أو سوقيًا أو فظًا أو قاسيًا أو متعجرفًا أو غامضًا ، فإن بعض الكلام عن الرومانسية لن يؤذى أحدًا .. لماذا (أغسطس) بالذات ؟ .. لا .. ليس هذا نوعًا من أدب المناسبات .. إن القصة تبدأ كما يلى ..

القصة القادمة

فلاسفة فى حسائى

الثمن فى مصر ٢٥٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

